تيريزا

إميل زولا



روايات الهلال ٨ قروش روائع القصص العالمى

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن دار الهلال

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٥٢ * أغسطس ١٩٦١ * ربيع الأول ١٣٨١

No. 152 — AUGUST 1961

بيانات اداريه

ثمن العدد فى اقليم مصر والسودان ٨٠ مليما – فى الاقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى اقليم سوريا ١٠٠ قرش سورى – فى لبنان ١٠٠ قرش لبنانى – فى الاردن ١٠٠ فلس – فى العراق ١٠٠ فلس

الاشتراك السنوى (١٢ عددا) – اقليم مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا – اقليم سوريا ولبنان (بالطائرة) ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا – السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة والمغرب ١١٠ قروش صاغ – الامريكتين ٥ دولارات – سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا

طريقة الدفع

فى اقليم مصر : بموجب اذونات أو حوالات بريدية أو شيكات – فى **السودان :** بموجب حوالات بريدية

فى الخارج : بتحويل مصرفى قابل الصرف فى القاهرة وقيمة الاشتراك ترسل مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال أو الى أحد وكلائنا ولا يمكن قبول أذونات البريد أو أوراق البنكنوت

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك – القاهرة

المكاتبات : روايات الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

تيريزا

تأليف

اميل زولا

أهم شخصيات الرواية

مدام راكان :	Mme Raquin	سيدة عجوز لها ابن وحيد ، وتربى ابنةاخيها اليتيمة. صاحبة متجر خردوات صغير فى « ممر القنطرة الجديدة » بباريس
تيريزا راكان :	Theresa R.	بنت اخى مدام راكان اليتيمة وزوجة ابنها
كاميلوس راكان :	Camillus R.	ابن مدام راكان الوحيد وزوج تيريزا .. وهو شاب معتل الصحة منذ طفولته
ميشو :	Michaud	مفتش شرطة متقاعد ، كان مأمورا فى الارياف ثم اعتزل الخدمة واقام بباريس وهو صديق مدام راكان
اوليفييه :	Olivier	ابن ميشو.. وهو موظف بادارة المباحث الجنائية فى باريس
سوزان :	Suzanne	زوجة اوليفييه ميشو
جريفيه :	Griviet	موظف مسن فى ادارة السكة الحديد ، ورئيس الادارة التى يعمل بها كاميلوس راكان
لوران :	Laurent	صديق منذ الطفولة لكاميلوس راكان ، قوى البنية، مغامر، مستهتر، يهوى الرسم

الفصل الأول

الممر الضيق

هناك فى باريس ، بين شارع مزارين وشارع السين ممر ضيق بين البيوت تمطيه عقود البناء من الجانبين تقريبا .. وطول هذا الممر ثلاثون خطوة ، أما اتساعه فلا يزيد على خطوتين .. وارضه مرسوفة بحجارة صفراء اللون أبلاها القدم ، تهتز تحت قدم السائر فتخرج من بين فواصلها قطرات من الماء الآسن تصافح الانف منها رائحة حمضية . واما المربعات الزجاجية التى تعلو الممر لتحجب عنه المطر والريح فسوداء اللون لكثرة ما تراكم عليها من الاوضار والأقذار ، فصارت تحجب الشمس مثلما تحجب الريح والمطر

واسم هذا الزقاق « ممر القنطرة الجديدة » ..

وفى ايام الصيف الصافية السماء ، تستطيع حزمة من الأشعة القوية ان تتسلل من بين مربعات الزجاج القذرة ، من شق هنا أو هناك ، او صدع هنا او هناك ، فتغمر الممر بضوء باهت

اما فى ايام الشتاء ، حين يكفهر الجو ويخيم الضباب ، فلا ترسل الشمس اشعتها الى ذلك المكان الضيق بباريس ، وتتركه فريسة للعتمة ، ويغدو النهار فيه ليلا كالحا رطب الانفاس كريه الرائحة

وعلى الجانب الأيسر من هذا الممر حوانيت ضيقة منخفضة تهب منها نسمات الأقبية المقرورة . وفى هذه الحوانيت ، تباع الكتب المستعملة واللعب الرخيصة والاوراق المستعملة فى العاب الحظ . ومعظم هذه السلع تغطيه الاتربة ، وكأنه يغط فى نومه مستكينا الى الاهمال والنسيان فى اطواء هـذا الظلام . والعتمة داخل هـذه الحوانيت التى ينخفض مستواها عن مستوى الممر اشد كآبة وأرطب

انفاسا ، والعاملون فيها يتراءون وكأنهم اشباح غريبة عن دنيا البشر تتحرك داخل اقبية

اما الجانب الايمن من ذلك الممر فعبارة عن حائط واحد لا ثغرة فيه ، يستغله اصحاب حوانيت الضفة الاخرى فى اقامة معارض لبضائعهم داخل واجهات زجاجية صغيرة ذات لون بنى قبيح. وفى احد هذه المعارض اقامت امراة تجارة صغيرة لها فى الحلى المقلدة ، فهى تبيع ارخص انواع الخواتم والقلائد فوق وسائد صغيرة من المخمل الازرق

ومن فوق السقف الزجاجى يعلو ذلك الجدار الاصم المعتم بفعل الرياح والمطر والدخان والتراب ، حتى أن ما فيه من خدوش او صدوع فى طلائه تبدو لمراى العين وكأنها آثار جذام او ندوب شجار فى وجه مربد

وممر القنطرة الجديدة ليس من الاماكن التى يغشاها الناس للتمشى أو انتجاعا للنزهة والترويح عن النفس .. ولكن يلجأون اليه اختصارا للطريق وتحاشيا لقطع دائرة كبيرة من الشوارع الجميلة ، فمن يمرون به هم من يضيق وقتهم عن ايثار النظافة والضوء والمنظر الجميل .. فهم يسرعون باجتيازه لا يلوون على شيء ، ومعظمهم من صبيان المتاجر والمصانع الصغيرة فى أكسية العمل الزرقاء أو حائكات ثياب فى طريقهن لتسليم ما انجزنه للمتاجر من أثواب . وليس بين هؤلاء وهؤلاء من يلتفت يمنة او يسرة ليلقى على تلك الحوانيت أو الواجهات الصغيرة فى اليسار او اليمين نظرة اهتمام .. حتى أن أصحاب الحوانيت هناك ينظرون بشيء من الريبة الى كل من يرونه ، بين الأمد والأمد ، يقف ليلقى نظرة على ما فى الداخل من السلع المتراكمة فى غير نسق بين الارض والسقف

ومن بين الحوانيت القائمة على الجانب الايسر من الممر متجر يضرب لون أثاثه الى الخضرة ، تعلوه لافتة طويلة ضيقة مكتوب عليها بحروف سوداء كلمة « خردوات » .. ومكتوب فوق زجاج الباب اسم امراة : « تيريزا راكان » باللون الاحمر ، وعلى جانبى الباب واجهتان زجاجيتان مبطنتان بورق ازرق

واذا مررت من هناك بالنهار ، رايت صناديق الخردوات الصغيرة مصفوفة داخل عتمة الحانوت . والنماذج التى أخرجت من صناديقها عبارة عن انواع رخيصة من الجوارب والقلانس والبنادق والحمالات، اصفر لونها من طول العهد وذهبت طلاوتها . وفى الجهة المقابلة للحانوت على الجانب الايمن معرض للازرار وادوات الزينة الرخيصة وابر التطريز وحبك الصوف والشرائط الملونة ، وكلها اشياء مضى عليها فى ذلك المعرض بضع سنوات ..

وفى وقت الظهر فى أيام الصيف ، عندما تفلح بعض أشعة الشمس فى شعشعة الضوء الى ممر القنطرة الجديدة ، يستطيع الناظر أن يتبين داخل الحانوت ، بين اكداس البضائع والقلانس وجها شاحبا جادا لامراة شابة .. جبينها منخفض ضيق يفضى الى أنف طويل نحيل مدبب . اما شفتاها فخطان ناحلان لونهما أحمر باهت ، وذقنها الصغير العصبى متصل بعنقها فى خط مضطرب سريع الاختلاج . اما جسمها فتخفيه عن الناظر من الخارج اكداس السلع ، فلا يظهر منه بين الحين والحين الا خط عام خال من التفاصيل .. وعيناها واسعتان سوداوان ، وشعرها غزير فاحم ، وقلما كانت هذه الصورة تتحرك من موضعها ، فهى تقضى الساعات هادئة بغير حركة فى موضعها المختار بين قلنسوتين من الصوف الابيض تناثر فى بياضهما صدأ الاعمدة الحديدية التى علقت فوقها نماذج المعروضات لكثرة ما فى الجو من الرطوبة ..

وفى الليل ، عندما يوقد المصباح فى الداخل تستطيع ان ترى بمزيد من الوضوح ، فتقع عيناك فى احد جانبى المتجر الصغير على « بنك » خشبى . اما الجانب الآخر ففيه سلم حلزونى يفضى الى مسكن فى الطابق العلوى . واما الجدران فتشغلها اخونة خضراء اللون .. وفى الوسط اربعة مقاعد ومنضدة

وفى اغلب الاوقات تجلس وراء « البنك » امراتان .. احداهما تلك المراة الشابة ذات الوجه الجاد ، والاخرى سيدة عجوز يفتر وجهها دائما عن ابتسامة وهى غافية . والسيدة العجوز فى نحو الستين من عمرها ووجهها البدين الشاحب يبدو شديد البياض فى ضوء المصباح . وفوق البنك يربض قط كبير مرقش الجلد كأنه نمر صغير يرقب بعينيه الخضراوين العجوز النائمة فى مقعدها

ومن خلف السيدتين يجلس شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، بطالع او يتحدث بصوت خفيض الى المراة الشابة .. وهو قصير القامة ، بارز العظام ،هزيل ، خفيف الشعر اشقره، شارد النظرات، خفيف اللحية ،وجهه الابيض ينتشر فوقه النمش الاصفر.. ويبدو فى جملته كالطفل العليل المدلل

وقبيل الساعة العاشرة تفيق السيدة العجوز من غفوتها ، ويتعاون الثلاثة فى اغلاق الحانوت .. ثم تصعد الاسرة كلها السلم اللولبى لتنام ، ويصعد القط فى أعقابهم ، وهو يحرص على حك راسه بكل عمود من أعمدة السياج يمر به فى صعوده ..

وفى الطابق العلوى ، يتكشف المسكن عن ثلاث حجرات .. فالسلم اللولبى يفضى بك من اسفل الى حجرة طعام ، تستخدم فى الوقت نفسه حجرة جلوس . وفى جانبها الأيسر مدفأة من القرميد ، يقابلها فى الجانب الأيمن خوان . وفى الوسط مائدة مستديرة كبيرة تحيط بها المقاعد . وفى المؤخرة من قاعة الطعام والجلوس هذه حاجز يفضى الى مطبخ مظلم . وعن جانبى حجرة الجلوس والمائدة حجرتان للنوم

وبعد ان تقبل السيدة العجوز ابنها وكنتها ، تعتكف فى حجرتها. وينام القط فوق مقعد فى المطبخ ، ويذهب الزوجان الى مخدعهما . ولهذا المخدع باب آخر يفضى الى سلم خلفى صغير ، ينتهى الى ممر القنطرة الجديدة عن طريق دهليز ضيق للغاية ..

وما أن يدخل الزوجان المخدع حتى يرتمى الزوج على الفراش.. فهو دائما فريسة للحمى ، اما الزوجة الشابة فتفتح النافذة لتغلق المصاريع الخشبية ، وتتمهل بضع دقائق فى مواجهة ذلك الحائط الاسود الأصم الذى يعلو الممر المسقوف . وتطول نظرتها الشاردة ما شاءت لها ان تطول ، ثم تتحول عن النافذة فى صمت وتأوى الى الفراش غير مكترثة بشىء ..

الفصل الثانى

أسرة

كانت مدام راكان فيما مضى تدير تجارة للخردوات فى مدينة فرنون . وظلت زهاء خمس وعشرين سنة مقيمة فى متجر صغير هناك . وبعد انقضاء بضع سنوات على وفاة زوجها ، شعرت بوطأة التعب والارهاق فباعت تجارتها .. وتجمع لها من مدخراتها ومن ثمن بيع متجرها رأس مال يصل الى اربعين الف فرنك ذهبا ، استثمرته فكان يغل عليها دخلا سنويا يصل الى الفى فرنك . وهو مبلغ يكفى حاجتها المحدودة وزيادة ، فقررت أن تعيش فى عزلة تامة عن متاعب هذا العالم وافراحه واتراحه لتنعم بحياة الطمانينة والهدوء اللذين هما سر السعادة عند أمثالها ..

وتحقيقا لهذه الغاية ، استأجرت بيتا صغيرا بأربعمائة فرنك فى السنة . وللبيت الصغير حديقة واسعة تمتد الى ضفة نهر السين. والبيت منعزل متوار عن الانظار يكاد يذكر الانسان بالدير . ويصل اليه المرء فى درب طويل ضيق متفرع من الطريق العام .. وهو درب خاص تحف به المراعى والمروج ، ولا يوصل الى دار غير تلك الدار التى تطل نوافذها على النهر وعلى التلال الجرداء فى ضفته الاخرى

وكانت السيدة المتقاعدة قد تجاوزت الخمسين من عمرها ، عندما حبست نفسها باختيارها هناك ، لا يؤنس وحشتها فى عزلتها الا ابنها الأوحد « كاميلوس » وابنة أخيها « تيريزا » . وكان هذان الانسانان الصغيران هما حسبها لتقر عينها وتغتبط بعيشها راضية النفس

وكانت سن كاميلوس فى ذلك الوقت عشرين سنة .. ولم تزل امه تدلله كما لو كان غلاما لم يشب عن الطوق . وهى فى حبها له

حب العبادة ، متأثرة بالمعارك المتصلة التى خاضتها ضد الموت كى تنقذ طفولته الطويلة من براثن العلة ، ثم لتحمى شبابه الواهن من نكساتها وعقابيلها . لقد اصيب الفتى منذ نعومة اظفاره بسلسلة متلاحقة من الامراض التى تخطر او لا تخطر على البال . وظلت مدام راكان خمس عشرة سنة فى نضال لا يفتر مع تلك العلل الوبيلة التى جعلت من ابنها هدفا لها لا تريد أن تحيد عنه . وكتب لها النصر بفضل صبرها وعنايتها وحنانها وشجاعتها

ومنذ العام السادس عشر ، اقترن ابلال كاميلوس من الامراض بمقدم المراهقة .. فظل جسده عرضة لهزات متعاقبة من آثار امراضه القديمة يشعر بصداها الموجع فى لحمه وعروقه . وكان لا بد أن يعاق نموه ، فظل قصير القامة شاحب المحيا معتل المنظر .. تتحرك اطرافه فى بطء وبغير فتوة او حمية . ولكن امه كانت تضاعف له الحب على قدر انحطاط قواه ووهن عظامه وخمود حميته ، وتنظر الى وجهه المكفهر الناحل بزهو الحنان والاعزاز .. أليست على خلاف الأمهات اللواتى يمنحن ابناءهن الحياة مرة واحدة ، قد وهبت وحيدها هذا الحياة نحوا من عشرين مرة ؟

وفى الفترات القصيرة التى تخللت الامراض ، كان الفتى يتحامل على نفسه ليختلف الى مدرسة للتجارة فى فرنون . وفى تلك المدرسة تعلم الهجاء والحساب ، ووقف تحصيله عند جدول الضرب والقسمة المطولة وبضع معلومات سطحية جدا فى النحو . وبعد ذلك تلقى دروسا خاصة لتحسين الخط ومسك الدفاتر . وعندما نصحوا لمدام راكان بارسال ابنها الى مدرسة ثانوية ارتعدت فرائصها ، لان المدرسة فى بلدة أخرى .. والاقامة فيها بالقسم الداخلى معناها موت كاميلوس ، فهى تعلم أنه سيموت ان هو فارق ظلها ، فقالت للناصحين أن الدرس سيقتله • وهكذا ظل كاميلوس جاهلا ، فجمع الى نقائصه وأمراضه البدنية نقيصة عقلية هى داء الجهل ..

وفى سن الثامنة عشرة ، الفى كاميلوس نفسه بغير شغل يشغله أو علم يملأ فراغ راسه ، فثقل عليه السأم من ذلك الحنان المفرط الذى تسبغه عليه امه ، والتحق كاتبا فى متجر للأطعمة الجافة براتب قدره ستون فرنكا فى الشهر

وكاميلوس قلق المزاج بتاثير علله وضعفه .. فكان فراغه يزيد من قلقه ويعذبه . ووجد بعض الهدوء والاستقرار فى العمل الشاق الذى تتطلب منه الاكباب على اعمدة هائلة من الارقام يجمعها ويعيد جمعها مرة بعد مرة فى صبر واناة .. حتى اذا جاء المساء وانهكه ذلك العمل المستمر ، وجد راحة فى الاستلقاء والشرود ..

وكانت مدام راكان قد تشاجرت مع ابنها بسبب اصراره على ذلك العمل فى المتجر ، لانها لم تكن تريد له أن يغيب عن نظرها ساعة من الزمان ، كى تبقيه ملفوفا فى اردية من الصوف ، فى حرز من نوائل الحياة وبوارحها . ولكن الفتى المدلل اصر على موقفه .. لانه وهو المتخم بالتدليل يشتهى العمل كما يشتهى الطفل لعبة يتلهى بها ، لا عن احساس بالواجب والمسئولية ، بل بوحى من الفطرة التى اشعرته أن العمل حاجة طبيعية لا تستقيم بغيرها حياته . وهو لفرط ما صبته عليه امه من حنانها شديد الأنانية .. ذاته هى محور الكون كله ، يخيل اليه انه يحب من يعطفون عليه ويلاطفونه .. ولكنه فى الحقيقة مستغرق فى احساسه بنفسه ، لا يأبه بشىء سوى صحته ، وينشد بكل وسيلة ممكنة ادخال السرور على نفسه . وعلى هذا الاساس وحده التمس النجاة من رعاية امه وعقاقيرها فى ذلك المتجر البعيد عن عينها ، يقضى فيه سحابة النهار جامعا طارحا • وفى المساء ، عندما يعود الى الدار المتوارية على ضفة النهر عن الانظار ، كان يسرع الى السين مع ابنة خاله تيريزا

وتيريزا يومئذ على ابواب الثامنة عشرة .. وقبل ذلك بست عشرة سنة ، عندما كانت مدام راكان تشرف على تجارتها بالمدينة ، هبط عليها اخوها الكابتن ديجان ، حاملا بين ذراعيه طفلة فى الثانية من عمرها . وقد رجع لتوه من مقامه الطويل فى الجزائر .. وقال لاخته باسما :

ـ اترين هذه الفتاة الصغيرة ؟ انت عمتها ! .. ماتت امها عنها .. ولست ادرى كيف اقوم على رعايتها وحدى . ولذلك قررت ان أعطيك اياها

وتناولت مدام راكان الطفلة بين يديها ، وهشت لها وقبلت

وجنتيها الورديتين . واقام ديجان فى فرنون اسبوعا .. ولم تكد اخته توجه اليه سؤالا عن الطفلة التى اعطاها اياها . وعلمت بصفة عامة ان الفتاة ولدت فىمدينة وهران ، وان امها كانت بارعة الجمال، وهى من المتوطنات او لعلها من بنات البلاد ..

وقبل رحيل ديجان عن فرنون بساعة واحدة ، سلم اخته مدام راكان وثيقة ميلاد الطفلة ، وفيها اعتراف بأبوته لتيريزا .. ولم تره اخته بعد رحيله . وجاءها بعد سنوات انه قتل فى افريقيا

وشبت تيريزا وهى تنام فى فراش واحد مع كاميلوس مشمولة برعاية عمتها وحنانها . وكانت الفتاة ذات بنية حديدية ، ولكن عمتها كانت تكلؤها وكأنها ذات علة مقيمة . وكان عليها ان تتجرع العقاقير والأشربة الطبية تشجيعا لابن عمتها على تناولها ، وتقضى وقتها فى حجرة محكمة شديدة التدفئة لتؤنسه . وكانت تقضى الساعات المتوالية مقعية امام نار المدفأة تحدق فى ألسنة اللهب من غير أن تحول عينيها أو تطرف بهما .. فحملتها تلك الحياة الموحشة المفروضة عليها بسبب اعتلال صحة ابن عمتها على الانطواء داخل نفسها ، وتعودت الكلام بصوت منخفض ، والسير بلا صوت على اطراف اصابعها ، والجلوس بلا حركة .. مفتوحة العينين تنظر الى لا شىء !

ولكنها حين تحرك يدها أو ترفع ذراعها لامر ما ، يدرك المرء على الفور أن وراء تلك الحركة مددا من الطاقة الكامنة والمرونة .. فعضلاتها قوية ، وبنيتها مطوية على حرارة وفتوة . وعندما غشى على ابن عمتها ذات مرة وهما على الشاطىء ، حملته بقوة ساعديها، وعادت به الى البيت فى خفة ويسر .. فحياة السكينة والخمول لم تستطع أن تخمد قوتها المتقدة ، وان جعلت لونها شاحبا قبيح الاصفرار فى الظلام . ولذا كانت تغادر عتمة الحانوت فى فرنون لتتطلع عند راس الشارع الى اشعة الشمس وهى تغمر الابنية والكائنات . وكان طبيعيا أن ترقص فى الخفاء فرحا عندما قررت عمتها بيع المتجر والاقامة فى البيت المنعزل على شاطىء السين ليل نهار ، لأنه سيتاح لها الاستمتاع بالهواء والشمس . وزاد سرورها عندما اصر كاميلوس على العمل كاتبا فى متجر الأطعمة الجافة ..

تحررت من ملازمته طول النهار داخل الدار ، حيث تصر عمتها على اغلاق النوافذ خوفا على وحيدها . ولكنها ظلت محتفظة بعادة الهدوء الظاهرى فى ملامح وجهها وحركاتها ، بحيث تخفى حماستها واشد انفعالاتها حرارة تحت واجهة هادئة واسارير ساكنة .. سواء فى ذلك انفعالات السرور القليلة ، او انفعالات الغضب والاستياء . ولم تكن تسمح لنفسها بالقفز والجرى الا حين تكون فى الحديقة بعيدا عن رقابة عمتها .. ويحلو لها عندئذ أن تستلقى بين الاعشاب الطويلة على الشاطىء .. تستلقى على بطنها كما يستلقى الحيوان المتأبد وقد توترت عضلات جسدها اليافع القوى، كأنها حيوان يتحفز للوثوب ويخفى قوته تحت ستار من السكينة تمهيدا للانقضاض . وكانت تلتذ بغرس اصابعها فى طين الارض الندية ، وتقضى ساعات على هذا الوضع وهى تحلم أحلاما جامحة. ويخيل اليها أحيانا ان النهر الهادر يوشك ان يطغى عليها ، فيتصلب جسدها وتتأهب للدفاع عن نفسها ..

وفى الأصيل تثوب اعماقها الى الهدوء ، وتجلس بجوار عمتها تحيكان الصوف او تحيكان الثياب .. وملامحها الهادئة تبدو مسترخية فى ضوء المصباح . ويجلس كاميلوس امامهما شاردا يفكر فى ارقامه ، وقلما يرتفع صوت منه او من امه بكلمة مقتضبة

ومدام راكان تنظر الى الشابين اليافعين فى حنان مطمئن ، لأنها قد رتبت بينها وبين نفسها زواجهما منذ سنوات طويلة .. لأنها كانت ترتعد جزعا كلما فكرت فى يوم تفارق فيه الدنيا ، وتترك وحيدها وليس من يسهر على رعايته وتمريضه . اما زواجه من تيريزا ، فسوف يتيح له ما يفتقر اليه من الحنان والحدب ..

ولم يكن من العجيب ان تظفر تيريزا من عمتها بثقة كاملة ، فهى مجدة فى عملها قادرة على تحمل المشاق .. وهى خير من يصلح ملاكا حارسا لكاميلوس ، لهذا كان زواجهما امرا مقضيا ..

وكان الشابان يعلمان منذ زمن طويل ان مصيرهما الى زواج .. فشبا وشبت معهما تلك الفكرة ، فصارت جزءا طبيعيا من اطار حياتيهما . وكانت مدام راكان بين الحين والحين ، تشير الى ذلك الامر قائلة :

– سننتظر الى ان تبلغ تيريزا الحادية والعشرين ..

وانتظر الاثنان بصبر واناة ، من غير لهفة او استحياء ..

ولم تكن دماء كاميلوس التى انهكتها العلل تعرف شيئا من ثوران المراهقة وضرامها ، فظل فى شبابه كما كان فى طفولته يقبل ابنة خاله كما يقبل امه من غير ان يحس فى اعماقه بأدنى اضطراب .. وهى فى نظره رفيقة طيبة مجاملة ، تذود عنه السأم والوحشة بصحبتها .. وتشرب معه الدواء المر لتهون عليه مرارته . وحين يلهوان معا ويحتضنها فكأنه يحتضن غلاما مثله ، فلا يحس فى جسده بخالجة . .ولم يخطر بباله فى أية لحظة أن يقبل شفتى تيريزا الحارتين ، وهى تحاول الافلات من بين ذراعيه ضاحكة ..

والفتاة كذلك يبدو انها احتفظت ببرودها وعدم اكتراثها . وفى بعض الاحيان كانت تحملق فى وجه كاميلوس بعينيها الكبيرتين ، ولا تحولهما عنه بضع دقائق .. ولكن نظرتها كانت ثابتة هادئة كل الهدوء . ولم يكن يختلج فيها شىء سوى شفتيها ، وهو اختلاج يسير جدا لا تكاد تفطن اليه العين .. فما من شىء يقرؤه المتفحص على ذلك الجبين الضيق وتلك الملامح الحازمة اليقظة . وعندما كان يجرى ذكر زواجها من كاميلوس ، كانت تستمع فى جد ، وتكتفى بالايماء موافقة على كل ما تقوله مدام راكان ..

وفى أمسيات الصيف ، كان كاميلوس يصحب ابنة خاله بعد الأصيل الى الشاطىء ، ضاربا عرض الحائط بتحذيرات امه المسرفة، متمردا على اغلال حنانها التى تكبله بها .. وكان يجرى وهو قابض على معصم تيريزا .. ثم يتمرغ فوق العشب معها ويتحداها للمصارعة وهى تأبى . وفى ذات مرة قابل اباءها بالهجوم عليها ، ودفعها على غرة فوقعت .. واذا بتلك الفتاة الهادئة تنتفض واقفة كانتفاضة الوحش الضارى ، وقد توهج وجهها واحمرت عيناها ، وانقضت عليه مرفوعة الذراعين ، فسقط كاميلوس على الارض من فرط الارتياع !

ومرت الاسابيع والشهور والسنون ، وحل اخيرا الموعد المضروب للزواج .. فانتحت مدام راكان بتيريزا جانبا . وحدثتها عن أبيها وامها واطلعتها على قصة مولدها . واصغت الفتاة لعمتها ثم قبلتها

من غير ان تقول كلمة واحدة . وفى المساء لم تتجه تيريزا الى حجرتها ، بل دخلت مع ابن عمتها الى حجرته .. وكان هذا هو كل التغير الذى طرا على حياتها فى ذلك اليوم ..

وعندما برز الاثنان من الحجرة فى الصباح ، كان كاميلوس على المعهود فيه من قلق العلة والانطواء على نفسه . وكانت تيريزا على المعهود فيها من التحفظ وعدم المبالاة وهدوء الأسارير ..

الفصل الثالث

الهجـرة

وبعد زواج كاميلوس بأسبوع واحد ، قال لامه صراحة انه ينـوى مغادرة فرنون والهجرة الى باريس ليعيش فيها . واحتجت مدام راكان .. فهى قد رتبت حياتها على المعيشة فى فرنون بهذا النسق، ولا تريد أن تغير شيئا فى اطار تلك المعيشة ٠٠ فثار غضب ابنهـــا وهددها قائلا انه سيمرض ان لم تذعن لرغبته ، وقال فيما قال :

ـ أنا لم أعارض فى تنفيذ أية رغبة أو فكرة من أفكارك ٠٠ أذعنت لارادتك وتزوجت ابنة خالى ، وتناولت جميع الادوية التى خطر لك ان تجــــرعينى اياها .. فلى الآن الحق فى ان ابدى رايا فى مســتقبلى . واقل ما يجب عليك هو الاستجابة لهذا الراى .. وسنرحل فى نهاية الشهر ..

ولم تنم مدام راكان تلك الليلة ، لأن القرار الذى اتخذه ابنها قلب حياتها رأسا على عقب ، فراحت تقدح زناد فكرها بجهـــد اليائس كى تضع منوالا جديدا لحياتها فىباريس .. وشيئا فشيئا، عاودها هدوؤها ٠٠ وخطر لها أن الزوجين الشابين حـــريان أن ينجبا، وسيكون راس المال الصغير عندئذ غير كاف .. فمن الواجب اذن خلق مورد جديد للمال ، وليس لها فى ذلك حيلة الا ان تعود الى التجارة ، وان تخلق عملا مثمرا لتيريزا تتولاه منذ الآن معها وتستقل به مستقبلا ..

وما أن طلع النهار ، حتى كانت قد وطنت نفسها على مغادرة فرنون .. ورسمت خطة لحياة جديدة . وعلى مائدة الغداء ، كان المرح الجاد مرتسما على محياها وهى تقول لابنها وزوجته ، أو طفليها كما كانت تؤثر ان تدعوهما :

ـ هذا ما سنصنعه .. سأذهب الى باريس غدا ، وسأبحث عن

محل سفير لتجارة الخردوات ، كى نعود ـ انا وتيريزا ـ الى بيع الخيوط والازرار والدبابيس . وسيشغلنا هذا فلا نشعر بســأم الفراغ .. اما انت ياكاميلوس فسيكون فى وسعك ان تفعل بوقتك ما يحلو لك ، فتستطيع ان تستمتع بالرياضة فى الشمس ان شئت، وان نبحث لك عن عمل ان شئت ..

فاجابها الشاب قائلا :

ـ بل سأبحث عن عمل هناك ٠٠

والواقع أن ضربا من الطموح الابله هو الذى حفـــز كاميلوس الى الرحيل عن فرنون ، لان نفسه حدثته بالعمل فى مؤســـسة كبرى بالعاصمة ٠ وكان دم السرور والنشوة يصبغ خديه الشاحبين عندما يتخيل نفسه جالسا فى مكتب ضخم وقد ارتدى كمين مستعارين اسودى اللون ووضع خلف اذنه قلما .. !

ومهما يكن من شيء ، فما من احد خطر له ان يستطلع راى تيريزا فى ذلك كله . فهى تبدى على الدوام طاعة سلبية ، حتى ان عمتها وزوجها ، لم يكبدا نفسيهما عناء سؤالها عن رايها فى ذلك الرحيل .. فهى ستذهب حيث يذهبان ، وتفعل ما يفعلان أو ما يريدان لها ان تفعل ، من غير تذمر أو عتاب ، بل ومن غير ان يبدو عليها اى تأثر

ووصلت مدام راكان الى باريس ، واتجهت راســـا الى ممر القنطرة الجديدة ، لأن عانسا عجوزا من أهالى فرنون وجهتها الى قريب لها يملك متجرا للخردوات فى ذلك الممر وفى نيته أن يبيعه . ورأت مدام راكان أن الحانوت صغير معتم فلم يرق لها ٠٠ ولكنهـا عندما غادرته وخرجت الى شوارع باريس ، افزعها زحام تلك الشوارع وضجيجها.. وروعتها فخامة السلع المعروضة فى واجهات المتاجر الكبرى وفداحة اثمانها . فصار ذلك الممر الضيق المنزوى بحوانيته المتواضعة وبضائعه الزهيدة اقرب الى نفسها ، والى ما الفته من حياة الهدوء والانزواء فى فرنون ، يوم كانت تدير هناك متجرها القديم . وآمنت انها اذ تقيم فى ممر القنطرة الجـديدة ، ستشعر وهى فى قلب باريس انها لم تغادر الاقاليم ، ويعصمها ذلك من الاحساس بالضياع وســـط هذا الضجيج والزحام والترف والفخامة

واعتقدت ان طفليها سيكونان هناك انعم بالا ، سعيدين بالانزواء فى هذا الركن القصى . ثم وجدت فى زهادة ثمن المتجر ما يحسم كل تردد .. اذ وفقت الى شرائه بألفى فرنك . وايجار الحانوت والمسكن الذى يعلوه الف ومائتى فرنك فى السنة . وكان لدى مدام راكان نحو أربعة آلاف فرنك من المدخرات نقدا . فقدرت ان فى استطاعتها دفع ثمن المتجر واجرة السنة الاولى من غير ان تجور على شىء من رأس مالها المستثمر فى اوراق مالية تضمنها الحكومة. وقدرت أن مرتب ولدها مضافا اليه ربحها من التجارة سيكون كافيا لنفقات المعيشة، بحيث لا تحتاج الى شىء من ايراد راس مالها المستثمر .. فينمو راس المال وتتراكم منه ثروة صغيرة او بائنة لأحفادها وحفيداتها الذين تتمناهم

وعادت مدام راكان الى فرنون مبتهجة النفس ، فقالت لولديها انها عثرت على كنز .. على مكان بديع فى قلب باريس ! .. وشيئا فشيئا صار الحانوت الرطب المعتم فى ممر القنطرة الجديدة قصرا فاخرا تروى عنه الاحاديث المسهبة فى الأمسيات . وكانت مخلصة وهى تتمثله فى ذاكرتها مكانا رحبا لائقا هادئا ، له الف مزية ومزية !

ـ آه ياتيريزا ياعزيزتى ! سترين كم ستسعدك الاقامة هناك . فهناك ثلاث حجرات رائعة فى الطابق العلوى .. والممر غاص بالناس الغادين والرائحين ، وسننسق الواجهتين الزجاجيتين تنسيقا ساحرا .. ولن يجد السأم طريقه الى نفوسنا !

وتدفق حديثها على هذا المنوال ، وقد استيقظت فيها غريزة التجارة ، وراحت تصدر الى تيريزا التعليمات فى اساليب البيع والشراء ، والحيل التجارية ، والاعيب السوق الصغيرة ، وتحذرها من خبث ابناء باريس ..

واخيرا غادرت الاسرة البيت الوادع القائم على ضفة السين . وفى مساء ذلك اليوم نفسه ، حلت الأسرة بممر القنطرة الجديدة..

وعندما خطت تيريزا الى داخل الحانوت الذى كتب عليها أن تقيم به منذ تلك اللحظة ، احست كأنها تنزل حفرة بها طين متعفن. وداعبت حلقها بوادر الغثيان ، وارتعدت أوصالها خوفا .. والقت

نظرة على الممر الرطب القذر ، ونظرة اخرى اكثر امعانا على الحانوت. وصعدت السلم الحلزونى ، وطافت بأرجاء المسكن ، فصدمتها مغاراته ووحشته .. ولكنها لم تحرك ساكنا ، لا بالاشارة ولا بالفعل ، لأنها احست بتجمد كالذى يحدث للماء عندما يصير جليدا . ولما تركتها عمتها وزوجها وهبطا الى الحانوت ، حطت على حقيبة من الحقائب وضمت يديها فى حجرها وقد امتلأ حلقها بالنشيج ، بيد انها عجزت عن البكاء ..

ولم تخل مدام راكان من الخجل لاسرافها فى الخيال واسترسالها مع الاحلام .. ولكنها حاولت ان تدافع عن الصفقة التى عقدتها ، وتمحلت دواء لكل نقيصة تكشفت عنها .. فأرجعت العتمة الى تلبد السحب فى سماء ذلك اليوم . اما الرطوبة والقذارة فيكفى للقضاء عليهما التنظيف الجيد . وهز كاميلوس كتفيه وقال لها :

ـ على رسلك ! ان المسكن لا بأس به .. ثم اننا لن نصعد اليه الا فى المساء . وانا لن اعود من عملى قبل الخامسة او السادسة ، وستكونان انتما معا طول النهار فى المتجر ، فلن تحسا بالضجر ..

فالشاب المدلل لم يكن ليوافق بحال من الاحوال على الاقامة فى ذلك الجحر المظلم الرطب ، لولا تعويله على لذة قضاء اليوم فى مكتب مؤسسة كبرى .. وكان واثقا من شعوره بالدفء طول النهار هناك . اما فى الليل فسيأوى الى فراشه مبكرا ، وبهذا يتجنب الاحساس بالرطوبة والوخامة ..

وظلت الفوضى سائدة فى المتجر والمسكن مدة الاسبوع الاول ، لان تيريزا جلست وراء « البنك » منذ اول يوم ولم تتحرك من موضعها . وعجبت مدام راكان فى نفسها من امر هذه الشابة التى لا تشعر بأدنى حافز لتنسيق بيتها ، ووضع اصص الازهار فى النوافذ ، وتغيير ورق الجدران والستائر والبسط. ولما اقترحت العجوز شيئا من الاصلاح والزينة ، اجابتها ابنة اخيها بكل هدوء قائلة :

ـ وفيم العناء ؟ اننا هكذا على تمام سجيتنا .. وراحتنا موفورة ، فلا حاجة بنا الى شىء من الترف الكاذب

فقامت مدام راكان بمفردها بتنسيق البيت ، ثم تنسيق المتجر،

الى ان ضاقت تيريزا ذرعا بمجهودات عمتها فاستأجرت عاملة للتنظيف ، تأتى كل يوم ساعة او نحوها ثم تنصرف .. وبذلك استقرت مدام راكان فى موضعها وراء « البنك » بجوار تيريزا ..

وقضى كاميلوس شهرا كاملا فى البحث عن عمل .. ومعظم وقته فى هذا الشهر كان ينفقه فى التجوال فى الشوارع ، الى ان سئم تلك الحال وبدا يتحدث عن رغبته فى العودة الى فرنون ! .. واخيرا حصل على عمل فى المركز الرئيسى لادارة سكك حديد اورليان ، وحددوا له راتبا مائة فرنك فى الشهر .. وهكذا تحقق حلمه !

وصار كاميلوس يغادر البيت فى الثامنة صباحا ، فيخرج من الممر الى شارع السين ، ثم الى الأرصفة فيمشى على ضفة النهر من المجمع العلمى الى حديقة النباتات ويداه فى جيوبه . ولم يشعر بالسأم من هذا السير الطويل وحيدا مرتين فى اليوم للذهاب والاياب .. فهو ينظر الى النهر المتدفق تارة ، والى السفن المحملة بالاخشاب تارة أخرى ، ولا يضنى ذهنه بالتفكير فى شىء . وربما وقف امام كنيسة نوتردام الكبرى ، وكان البناءون مشغولين عندئذ بترميمها ، وينطلق بعد ذلك الى مرفأ النبيذ فيتسلى باحصاء العربات الخارجة من المحطة ، وربما اخترق حديقة النباتات فى طريق العودة والقى نظرة على اقفاص الدببة .. وتسكع مدة نصف ساعة مستمتعا بالاعيب الدببة الصغيرة ، ولا سيما العابها البهلوانية فى التأرجح بين قضبان الاقفاص . وكانت لذته فى تلك المشاهدة عظيمة ، وان لم يفكر فى دواعيها .. ثم يستأنف السير الى البيت على مهل ، وهو يرقب بعينيه المارة والعربات والمتاجر ..

وما ان يصل الى البيت حتى يأكل ثم يشرع فى القراءة ، وكان قد اشترى طبعات رخيصة مستعملة من أعمال تيير التاريخية ودراساته لعصر نابليون ، والتاريخ الذى كتبه لامارتين عن حزب الجبل اثناء الثورة الكبرى ، وبعض مبسطات شعبية فى العلوم والفلك والتاريخ الطبيعى ، وقد خصص لنفسه ثلاثين صفحة يقرؤها كل مساء بصرف النظر عما قد يصيبه من الضجر .. لان ذلك كان يدخل فى روعه انه يستكمل تعليمه وثقافته . وربما طلب الى زوجته ان تصغى ، ثم يقرأ لها فقرات تعجبه او طرائف . وكان يدهشه دهشة بالغة ان تيريزا تطيق البقاء غارقة فى شرودها

الصامت طول الأمسية ، من غير ان تحدثها نفسها بتصفح كتاب مثلا .. فآمن فى أعماق سريرته ان زوجته ضعيفة العقل متخلفة الذهن ..

والحق ان تيريزا كانت لا تجد صبرا على قراءة الكتب ، فهى تؤثر الصمت والسكون ، تثبت عينيها فى اتجاه واحد وتطلق العنان لخواطرها بغير ضابط .. ولكنها كانت على الدوام لينة العريكة سهلة القياد ، لانها جعلت كل همها فى ان تكون اداة سلبية طيعة لا ارادة لها ..

ومضت التجارة بمعدل واحد .. فالارباح فى كل شهر كالذى سبقه بغير زيادة او نقصان . والعملاء هن الحائكات المقيمات فى ذلك الموضع من الحى . وفى كل خمس دقائق تدخل فتاة فتشترى شيئا ببضعة مليمات . وتقوم تيريزا على خدمتهن بألفاظ لا تتغير ، وابتسامة تقفز الى شفتيها بطريقة آلية . أما مدام راكان فكانت اكثر تبسطا واطلق لسانا ، فهى فى الواقع التى كانت تجتذب قلوب العملاء ، وتستبقى صلتهم بالحانوت

ومضت الامور على هذا النسق الرتيب ثلاث سنين .. كل يوم فيها صورة مكررة من امسه ، مطابقة لغده . ولم يتغيب كاميلوس عن مكتبه يوما واحدا ، وامه وزوجته لم تغادرا الحانوت الا مرات معدودات لا تستحق ان تذكر

ومن الطبيعى ان تيريزا وهى تعيش فى ذلك الظلام الرطب والصمت الواجم الثقيل ، كانت ترى الحياة تمتد امامها عاطلة من كل زخرف ، جرداء من كل ثمرة .. يتمخض كل مساء فيها عن مضجع بارد موحش ، ويتجشأ كل صباح عن يوم ثقيل الوطأة بارد الانفاس بغيض الريح خواء ...

الفصل الرابع

سهرة الخميس

وخصص آل راكان يوما واحدا فى الاسبوع ، هو مســاء الخميس ، للاستقبال .. فتوقد فى حجرة المائدة الانوار ، وتوضع على النار قدر للشاى .. فمساء الخميس من كل اسبوع حدث فريد فى حياة الاسرة ، تختلف عن سائر ايام الاسبوع اختــلافا ظاهرا . وحسب هذه السهرة من خطورة فى حياة آل راكان ، انهم يأوون الى الفراش فى الساعة الحادية عشرة !

وكانت مدام راكان قد التقت بأحد اصدقائها القــدامى فى باريس ، هو مأمور الشرطة «ميشو» الذى قضى عشرين عاما من خدمته فى فرنون . وكان يسكن دارا واحدة هو وآل راكان هناك يومئذ ، فتوثقت عرى الصداقة بغير تكلف بينهما .. ثم افترق الصديقان ، فاعتزلت مدام راكان التجارة وســكنت دارا على شاطىء السين . وبعد بضعة أشهر ترك ميشو الخدمة فى الاقاليم لبلوغه سن التقاعد ، واقام فى باريس فى شارع السين لينعم بحياة هادئة بفضل معاشه السنوى المتواضع ، الى ان اتفق له عبور ممر القنطرة الجديدة ذات يوم فاذا به وجها لوجه امام صديقتــه العتيدة مدام راكان . وفى مساء ذلك اليوم نفسه ، جاء تلبية لدعوتها وتناول طعام العشاء على مائدة آل راكان .. وكان ذلك يوم خميس ، فبدأت بهذا الحادث السهرة التىصارت تقليدا اسبوعيا، لان مأمور الشرطة السابق حرص على القدوم فى نفس الموعــد بانتظام . وبعد بضعة اسابيع اتى معه بابنه « اوليفييه » ، وهو رجل طويل القامة فى الثلاثين من عمره ، نحيل ، متزوج من امرأة مفرطة فى القصر بطيئة الحركة عليلة التكوين . واوليفييه يشغل منصبا فى حكمدارية الشرطة ، يدر عليه ثلاثة آلاف فرنك فى

الشهر .. فكان ذلك مثار غيرة شديدة لدى كاميــلوس ، لان اوليفييه كبير الكتاب فى ادارة المباحث الجنائية

وشعرت تيريزا بنفور من أول نظرة الى ذلك الشاب الفـــاتر الحياة المتعالى، الذىيحس بتنازله وتعطفه بالقدوم الىذلكالحانوت فى ممر القنطرة الجديدة ، هو وزوجته الضعيفة الشاحبة اللون ..

واتى كاميلوس من جانبه بضيف آخر ، وهو موظف عجوز فى ادارة السكة الحديد التى يعمل بها وهو «جريفيه » رئيس الكتاب الذى يتقاضى الفين ومائة فرنك فى الشهر .. وهو الذى يوزع العمل على الموظفين فى مكتب كاميلوس ، ولذا كان كاميــلوس يبدى نحوه احتراما خاصا

وفى أحلام اليقظة الكثيرة التى كان يستغرق فيها كاميلوس ذاهبا وآتيا من العمل ، كان يحدث نفسه أن جريفيه سيموت يوما ما ، وانه قد يحل محله بعد عشر سنوات أو نحو ذلك .. وكان جريفيه يشعر بسرور عظيم للاستقبال الحافل الذى تتلقاه به مدام راكان ، ولذا كان حريصا على الحضور بانتظام فى مساء كل يوم خميس .. وبعد انقضاء ثلاثة اشهر ، انقلب هذا الحرص الى عادة واجبة بل محتمة .. فهو يذهب الى ممر القنطرة الجديدة فى مساء الخميس ، مثلما يذهب كل صبــاح الى مكتبه بصــورة آلية شبه غريزية ..

ومنذ الساعة السابعة مساء ، تشعل مدام راكان النــار ، وتضع المصباح الكبير فى وسط المائدة .. والى جانبه معدات لعبة الدومينو ، وتنصرف الى غسل فناجين الشاى . وفى تمام الساعة الثامنة يلتقى امام باب الحانوت ميشو وجريفيه .. أحدهما قادما من شارع السين والاخر من شارع فرارين ، فيدخلان معا وتنتقل الاسرة بكامل هيئتها الى الطابق العلوى ، ويجلس الجميع حــول المائدة فى انتظار قدوم اوليفييه ميشو وزوجته .. فمن عادتهمـا ان يصلا دائما متأخرين ..

وبعد ان يلتئم الجمع ، تصب مدام راكان الشاى ، ويفــرغ كاميلوس صـــندوق الدومينو فوق الغطاء المشمع المبسوط على المائدة . ويستغرق الجميع فى اللعب ، فلا تسمع الا دقات الدومينو بين الحين والحين . وبعد كل جولة ، يرتفع النقاش دقيقتين او

ثلاثا ، ليعود السكون بعدها الا من طرقات الدومينو على خشب المائدة ..

وكانت تيريزا تلعب بعدم اكتراث ، يثير اعصاب كاميلوس ... وربما رفعت عن الارض فرانسوا ، وهو القط الكبير الذى أتت به مدام راكان معها من فرنون ، ووضعته على حجرها لتربت عليه باحدى يديها وهى تلعب الدومينو باليد الاخرى ..

والحقيقة ان سهرات الخميس كانت عذابا لتيريزا .. ولذا كثيرا ما كانت تتعلل بصداع أوتوعك حتى لا تشترك فى اللعب ، وتجلس صامته نصف نائمة وقد اعتمدت بخدها على راحة يدها ، ووضعت مرفقها على المائدة ، وانصرفت الى مراقبة ضيوف عمتها وزوجها فى ضوء المصباح الضارب الى الصفرة . وكان كل وجه من تلك الوجوه يثير تأففها ، فتنقل بصرها من وجه الى وجه ، وهى مشمئزة اشمئزازا عميقا .. تبذل غاية جهدها حتى لا يبدو على عينيها.. فوجه العجوز ميشو أبيض فيه لطخ حمراء ، انه وجه شيخ ماتت حيويته ، وصار الى طفولته الثانية . اما جريفيه فوجهه ضيق وعيناه مستديرتان وشفتاه رفيعتان .. وهى معالم سحنة تدل على البلاهة

واما اوليفييه فعظام خديه بارزة حتى أنها تكاد تخرق جلده ، ووجهه فيه تصلب خال من المعنى يرتكز على جسد سخيف التكوين .. وسوزان زوجة شاحبة خائرة القوى زائفة النظرات ناعمة الوجه شفتاها خاليتان من اللون .. فتيريزا على الجملة ، لم تجد فى هؤلاء الضيوف الاربعة فى سهرة الخميس الاسبوعية مخلوقا بشريا واحدا تترقرق فيه الحياة .. فكأنهم اشباح بلا معنى ، حكم عليها بالحبس معهم فى مثل ذلك المساء من كل اسبوع ..

وفى بعض الاحيان ، كان هذا الاحساس يثقل عليها... فينتابها نوع من التخيل المرضى ، فترى نفسها وقد دفنت فى مقبرة مع أجساد أموات ، ولكنهم يحركون رءوسهم بطريقة ميكانيكية ، ويحركون أرجلهم واذرعهم مثلما تفعل الدمى فى مسرح العرائس عندما تحركها الخيوط .. فهواء حجرة الطعام المغلقة النوافذ يكاد يخنقها ، والصمت الثقيل القابض ، وضوء المصباح الضارب الى

المصفرة ، يملأن جوانحها برعب غامض وقلق لا تستطيع ان تعبر عنه الالفاظ ..

وكانت مدام راكان قد ثبتت فى باب الحانوت ناقوسا صغيرا ، متى سمع فى ذلك الصمت كان ايذانا بحضور عميل الى المتجر .. فكانت تيريزا ترهف أذنيها طول الوقت ، حتى اذا شق صرير الناقوس السكون السائد فى الحجرة أسرعت بالنزول متلهفة على الهروب من جو قاعة المائدة . وتستغل قدوم العميل فتقوم على خدمته بابطأ ما تستطيع ، حتى اذا قضى العميل حاجته وتركها لنفسها ، جلست بمفردها فى الحانوت وظلت فى موضعها اطول مدة ممكنة.. تخشى الصعود وتتهيب العودة الى الجو الخانق ، وتتجنب أن يقع بصرها على سحنة جريفيه وأوليفييه

ويفعل الهواء الرطب فى الحانوت فعله فى تهدئة نفسها وتلطيف الحرارة التى تسرى فى يديها فتعود الى مظهرها الهادىء المألوف .. ولكنها للاسف لا تستطيع ان تبقى ما شاءت البقاء فى الحانوت لان غيابها الطويل يثير سخط كاميلوس ، فهو لا يستطيع ان يفهم كيف يفضل أى انسان الوحدة فى ذلك الحانوت على الجلوس مساء الخميس فى قاعة المائدة بين الضوء والصحبة الحسنة .. لذا سرعان ما يطل من راس السلم اللولبى ، ويجيل نظره فى المتجر متفقدا زوجته ، ثم يصيح :

ـ ماذا تفعلين هناك ؟ لماذا لا تصعدين ؟.. جريفيه محظوظ هذه الليلة .. ربح جولة أخرى

وتنهض الشابة على مضض ، وتعود الى مكانها من المائدة فى مواجهة ميشو العجوز الذى يبتسم ابتسامة مقززة .. وتظل فى موضعها هذا الى الحادية عشرة ، والقط بين ذراعيها تتشاغل به حتى لا تقع عيناها على تلك الدمى المزيفة الحياة التى تتحرك من حولها بلا معنى .. !

......

الفصل الخامس

ألا تعرفينه ؟

وذات يوم من أيام الخميس ، عاد كاميلوس من مكتبه الى المتجر، وفى صحبته شاب طويل القامة عريض المنكبين دفع به من ظهره الى الداخل فى الفة ، واشار اليه بسبابته قائلا لامه :

ــ الا تعرفين هذا الشاب يا اماه ؟

فنظرت السيدة العجوز الى الشاب الطويل ، ونقبت فى ذاكرتها ، فلم تجد شيئا يذكرها به .. وكانت تيريزا ترقب المنظر بهدوء ، فصاح كاميلوس :

ــ كيف هذا يا اماه ؟!.. الا تعرفين « لوران » الصغير ؟ ابن لوران الكبير الذى يمتلك حقول القمح البديعة بالقرب من جيفوس ؟ الا تتذكرينه ؟.. كنت أذهب معه الى المدرسة ، وكان من عادته ان يقف ليصحبنى كل صباح وهو قادم من بيت عمه الذى كان يقيم بجوارنا .. وكنت تعطينه كل يوم شطيرة من الخبز محشوة بالمربى

وعلى الفور تذكرت مدام راكان لوران الصغير ، وادهشها ان تطول قامته الى هذا الحد . ولم تكن قد راته منذ عشرين سنة ، فحاولت عن طريق القاء سيل من الذكريات الدقيقة ان تشعره بحفاوتها ، وتعوضه عن النسيان الذى بدر منها عند دخوله . وجلس لوران ، وابتسم فى طمأنينة وهدوء ، واخذ يجيب بصوت واضح عن الاسئلة التى توجه اليه ، ويلقى فيما حوله نظرات هادئة تدل على الثقة بالنفس .. واستطرد كاميلوس يقول لامه :

ــ تصورى يا اماه ان هذا الافاق العريق يعمل فى محطة سكة حديد أورليان منذ عام ونصف ، ولكننا لم نتقابل الا هذا المساء ! وهذا يدلك على مبلغ ضخامة مؤسستنا .. ولكنه يتمتع بصحة

جيدة يا امى . وقد مكنه ذلك من مواصلة الدراسة ، ومرتبه الآن الف وخمسمائة فرنك .. فقد ارسله ابوه للمدرسة الثانوية ، ثم درس القانون ، وتعلم الرسم .. اليس كذلك يالوران ؟.. ينبغى ان تبقى لتناول العشاء معنا ..

فاجاب لوران على الفور :

ــ بكل سرور !

وخلع قبعته ، وجلس على سجيته فى الحانوت .. واسرعت مدام راكان الى المطبخ . اما تيريزا التى لم تقل كلمة واحدة ، فاخذت تتفحص القادم الجديد . ولم تكن قد رات رجلا حقيقيا من قبل ، فأدهشها مراى لوران بطوله وقوته ونضارة بشرته . ونظرت بشيء من الاعجاب الى جبهته المنخفضة التى يعلوها شعر أسود خشن ، ويبرز من تحتها خدان مليئان وشفتان حمراوان وملامح منتظمة .. فهو فتى وسيم دموى المزاج ، واستقرت عيناها لحظة فوق عنقه القصير الفليظ الكثير اللحم الدال على القوة . ثم تركت نفسها تسترسل فى تأمل يديه الكبيرتين المستقرتين فوق ركبتيه ، فرات له اصابع ضخمة .. ولابد ان قبضته حين يطوى كفه تبدو هائلة ، يستطيع ان يصرع بها ثورا ..

ولوران نموذج صادق لابناء المزارعين .. فهو ثقيل الحركة نوعا، مستدير الظهر ، عنيد وديع السحنة والنظرات .. يشعر المرء ان تحت ثيابه عضلات نامية ، وجسدا قويا لحمه صلب . وجعلت تيريزا تفحصه بفضول ، تنظر تارة الى معصميه وتارة اخرى الى وجهه . وسرت فيها رجفة يسيرة ، عندما وقعت عيناها على عنقه الذى يشبه عنق الثور

واخذ كاميلوس يعرض عليه محتويات مكتبته الصغيرة ، ليبين لصديق الطفولة انه ايضا من المهتمين بالدرس .. ثم كأنما تذكر شيئا غاب عنه ، فقال :

ــ ولكنك طبعا يجب ان تعرف زوجتى .. الا تذكر بنت خالى الصغيرة التى كانت تلعب معنا فى فرنون ؟

فأجابه لوران ، وهو ينظر نحو تيريزا ببساطة :

ــ بل انى عرفت زوجتك منذ اول وهلة ..

وشعرت تيريزا بشيء من القلق الغامض تحت وطأة تلك النظرة النفاذة ، فتكلفت ابتسامة وتبادلت مع لوران وزوجها بضع كلمات .. ثم أسرعت بالانصراف لتلحق بعمتها وهى لا تشعر بالارتياح ..

وبعد قليل جلس الجميع الى مائدة العشاء .. وبعد تقديم الحساء خطر لكاميلوس ان اللياقة تقضى بالاهتمام بصديقه فسأله :

ـ كيف حال ابيك ؟

فأجابه لوران ببساطة تامة :

ـ لست ادرى .. فقد تشاجرنا وانقطعت المراسلات بيننا منذ خمس سنوات ..

فظهرت دهشة من هذا السلوك الشاذ على وجه كاميلوس ولسانه .. فقال لوران :

ـ ان هذا العجوز لديه افكار عجيبة .. فهو لا يكف عن مقاضاة جيرانه ، وقد خطر له ان يرسلنى الى الكلية ليجعل منى محاميا كى اكسب له قضاياه ضد اولئك الجيران .. فلوران العجوز رجل نفعى ، ومطامعه نفعية للغاية .. وهو يفتش دائما عن ربح يجنيه..

وزادت دهشة كاميلوس من غرابة اطوار صاحبه ، وسأله :

ـ ولكن ألم تكن راغبا فى ان تغدو محاميا ؟

فأجابه صديقه ضاحكا :

ـ كلا بالطبع .. وقد ظللت سنتين أزعم للشيخ اننى اتلقى المحاضرات فى القانون كى احصل على المائة فرنك شهريا التى خصصها لدراستى .. وكنت فى تلك المدة اعيش مع رسام من رفاق المدرسة الثانوية ، وشرعت أمارس الرسم مثله .. فقد لذ لى ذلك الفن ، والعمل فيه لطيف مبهج غير مجهد ، فكنا ندخن الغليون ونتبادل المزاح والنكات طول النهار !..

وفغر آل راكان افواههم ، واتسعت حدقاتهم .. اما لوران فقد مضى يقول :

ـ ولسوء الحظ لم تطل هذه اللعبة الجميلة ، لان ابى اكتشف انى اخدعه . فأوقف راتبى بغير سابق انذار ، ودعانى للعودة كى

اقلح الارض معه .. فجربت عمل الصور الدينية ، ولكنها تجارة كادت تسلمنى الى الموت جوعا ، فنفضت يدى من الفن وقررت أن ابحث عن عمل . وبحثت ووجدت .. وسيموت الشيخ يوما من الايام . وانا فى انتظار وفاته كى اتمكن من الحياة خلى البال ، ولا اتكلف ان اقوم بأى عمل فى سبيل العيش ..

وهكذا انطلق لوران يتحدث بصوت غير رنان عن تاريخ حياته ، فصور بتلك الكلمات نفسه صورة واضحة المعالم .. فهو فى اعماق نفسه كسول عارم الرغبات والشهوات ، محدود الافق فى مطامعه، منتهى امله فى الحياة اللذات الضحلة السهلة المنال . وجسده القوى الضخم لا يريد ان يقوم بعمل مثمر ، بل يحلم بالاسترخاء المتصل والرغد والعيش الناعم بحيث يأكل طعاما دسما جيدا كثيرا ، وينام نوما عميقا طويلا ، ويرضى اهواءه الى حد التخمة من غير مجازفة او تعرض لاى نوع من الارهاق المادى او المعنوى

ولهذا السبب كان العمل القانونى يفزعه ، ومجرد التفكير فى فلاحة الارض ترتجف له اوصاله .. فألقى بنفسه فى بحر الفن على امل ان يجد فيه صناعة لا تتطلب مجهودا . وخيل اليه لخفة وزن الفرشاة أن كسب القوت بها سهل ، وأن استعمالها اقل عناء من استعمال الفأس . وكان يحلم عن طريق الفن بمتع رخيصة ، وحياة رضية حافلة بالنساء ، وبالاستلقاء على الارائك والتهام الاطعمة وشرب الخمر . وظل هذا الحلم مسيطرا عليه طول المدة التى امده فيها والده بالمال . ولكن عندما رأى شبح الفاقة راى العين ، بدأ يراجع نفسه .. وادرك انه لا قبل له بتحمل الحرمان ، وأن مجد الفن عنده لايساوى عنده جوع يوم . ولما طرح الفرشاة جانبا لم يحزن على فراقها ، لان الفن لم يكن عنده غاية بل مجرد وسيلة الى حياة حسية فاسقة مموهة بالمظهر الجميل . وكل ما اسف عليه هو فراق مرسم صديقه الكبير الذى قضى فيه خمس سنوات متمرغا فوق الحشايا والارائك ! وتحسر أيضا على النساء اللواتى كن يفدن على المرسم ليكن نماذج للوحات الفنية ، ولا يأبين من يقدم لهن وجبة طعام او قطعة نقود زهيدة .. فهذه الدنيا الحافلة بالمتع البهيمية ، قد قطعت ما بينها وبينه منذ اضطر للعمل فى سبيل اللقمة

ومع هذا استطاع لوران ان يحمل نفسه بسهولة على اعتياد حياة الوظيفة الجديدة ، بما فيها من رتابة ووخامة ، واعجبه منها على الاقل انها تترك لعقله فرصة النوم ولا تكلفه التفكير . ولم يكن يضيق من تلك الحياة الا بامرين : افتقاره الى النساء ، والطعام القليل الدسم الذى يقدمونه له فى ذلك المطعم الرخيص ..

وكان كاميلوس يصغى لصديقه، وهو يروى تفاصيل حياته الفنية .. وداعب هذا الخيال احلام الشاب الهزيل العليل الذى لم يجرب من الحياة شيئا. وتمثلت له النساء متجردات من ثيابهن امام عينيه وهو يرسمهن ، وساله غير مصدق :

— وهل حقا كان النساء يتجردن من ثيابهن امامك بهذه البساطة ؟

واجابه لوران باسما ، وهو ينظر الى جهة تيريزا التى شحب لونها تحت نظرته :

— طبعا .. وماذا فى ذلك ؟

فضحك كاميلوس ضحكة طفل غرير ، وقال :

— لابد ان هذا شىء غريب .. لابد انك شعرت بالحرج والارتباك ، واخذت بالموقف فى اول مرة ..

وبسط لوران احدى يديه الكبيرتين امامه ، وجعل ينظر فيها كانه يدرس خطوطها . وكانت اصابعه ترتجف قليلا ، وقال كانه يخاطب نفسه :

— فى المرة الاولى اعتقد اننى وجدت المسالة طبيعية للغاية .. فهذا الفن شديد التسرية .. لاعيب فيه الا انه غير مربح . وكانت عندى فى وقت من الاوقات فتاة — نموذج للرسم — بديعة التكوين ذات شعر احمر وبشرة ناصعة وجسد رشيق متناسق وصدر رائع وخصر دقيق ينتهى الى ..

ورفع لوران راسه فجاة ، فراى تيريزا امامه صامتة ساكنة تنظر اليه بيقظة شديدة ، وخيل اليه ان عينيها السوداوين حفرتان ليس لهما قاع ، ومن بين شفتيها المنفرجتين بدا له حلقها الاحمر شديد الجفاف.. وحول لوران عينيه من تيريزا الى كاميلوس وغالبه

الابتسام .. ثم اكمل عبارته باشارة من كفيه فى الهواء رسم بها بقية ما بداه من وصف تلك الفتاة . وتتبعت تيريزا تلك الحركة بعينيها ، وكانت الحلوى قد قدمت ومدام راكان فى الطابق الاسفل تؤدى خدمة لاحد العملاء ..

وبعد قليل رفعت صحاف الطعام عن المائدة ، واطرق لوران برهة كانه يفكر فى شىء هام ، ثم التفت فجاة الى كاميلوس قائلا :

— يجب ان ارسم لك صورة !

وابهجت هذه الفكرة كاميلوس وامه .. اما تيريزا فقد ظلت صامتة ، واستطرد لوران قائلا :

— اننا لم نزل فى فصل الصيف ، وموعد الانصراف من المكتب الساعة الرابعة .. ففى استطاعتى ان آتى توا الى هنا وتجلس امامى ساعتين كل يوم .. وبهذا المعدل ستقتضى منا الصورة نحو أسبوع ..

واحمر وجه كاميلوس سرورا وصاح :

— وستتناول العشاء معنا .. وساعقص انا شعرى وارتدى حلتى السوداء

وفى هذه اللحظة دقت الساعة ثمانى دقات .. ودخل جريفيه وميشو . وبعد قليل حضر اوليفييه وسوزان ، وقدم كاميلوس صديقه الى المجموعة . وقطب جريفيه جبينه لانه لم يكن يحب هذا الفتى . واما الباقون فاظهروا فتورا ، ولكن لوران لم يكترث وحاول ان يكسب مودتهم .. وقبل الانصراف كان قد اجتذب قلب جريفيه نفسه ، مع انه بحكم رئاسته له كان اصعب الجميع مراسا ..

وفى تلك الليلة لم تحاول تيريزا النزول الى الحانوت . ولم تبارح مقعدها الى الساعة الحادية عشرة . وظلت تلعب وتتجاذب الحديث على غير عادتها ، متحاشية التقاء عينيها بعينى لوران . ولم يكن ذلك عسيرا لان الشاب لم يلق اليها بالا طول السهرة. ولكن حيويته المتبدية فى قامته ولون بشرته وصوته العريض وضحكته المجلجلة ، اشاعت الاضطراب فى اعصاب المراة الشابة وافقدتها توازنها

الفصل السادس

تمام الصورة

وابتداء من ذلك اليوم ، صار من عادة لوران ان يأتى الى حانوت آل راكان كل مساء . وكان مسكن لوران فى شارع القديس فيكتور فى مواجهة مرفأ النبيذ ، وهو عبارة عن غرفة مفروشة يؤدى عنها اجرا شهريا ثمانية عشر فرنكا ، والحجرة اشبه بخزانة تحت السقف المائل ، يصل اليها النور من كوة فى السقف ضيقة ، ومساحة أرضها لا تزيد على ثمانية عشر قدما مربعا . فمن الطبيعى الا يأوى لوران الى هذا الجحر الا فى آخر لحظة يستطيعها من لحظات الليل ..

وقبل ان تجمعه الصدفة بكاميلوس ، كان لا يدرى كيف يقضى ساعات المساء .. فليس لديه من المال ما يتيح له السهر فى مقاهى باريس ومقاصفها ، ناعم البال بكوب من الشراب .. فكان يتلكأ جالسا فى المطعم المتواضع الذى يتناول فيه عشاءه ، فيدخن غليونا أو غليونين وامامه قدح القهوة الذى يقدم فى ختام الوجبة ، ثم يعود ادراجه الى مسكنه فى شارع القديس فيكتور ، ماشيا على مهل مترددا بين أرصفة السين وحدائق الشوارع الصغيرة . واذا كان الجو دافئا ، جلس فوق مقعد من المقاعد العامة ليستروح النسمات بعض الوقت ..

ومن هذا نعلم ان متجر الخردوات فى ممر القنطرة الجديدة ، صار ملاذا بديعا لامسياته يقدم اليه الدفء والسكينة وعبارات المودة والترحاب والرعاية . وينعم فيه فضلا عن ذلك بالشاى الممتاز الذى تتفنن فى صنعه مدام راكان .. ويظل هناك الى الساعة العاشرة مساء ، مسترخى الاعضاء ، جالسا على سجيته ، يهضم عشاءه على مهل .. ولا ينصرف الا بعد ان يعين كاميلوس فى اغلاق المتجر

وذات مساء اتى معه بحامل الرسم وصندوق الالوان .. فقد تقرر ان يشرع فى رسم صورة كاميلوس فى اليوم التالى . وقامت الاسرة المبتهجة بشراء القماش اللازم للصورة ، واعد كل شىء بعناية تامة . واخيرا جلس الفنان امام اللوحة البيضاء ، وشرع فى العمل داخل مخدع الزوجين ، لان الضوء هناك كما قال اوفر واصلح للرسم

واستغرق منه رسم الراس رسما اوليا ثلاث امسيات .. كان فيها يحرك قلم الفحم فوق القماش بحذر شديد فى لمسات هينة ، فطريقته جافة بدائية ، ويده مترددة ، وفيه حرص على الدقة فى النقل الحرفى عن النموذج . وفى اليوم الرابع اخرج من صندوق الالوان قطعا صغيرة جدا ، ثم راح يصور بطرف الفرشاة وكانه يستخدم قلم الرصاص . وفى ختام كل جلسة ، كانت مدام راكان وكاميلوس يظهران اعجابا عظيما ونشوة كبيرة ، فكان لوران يقول لهما :

- اصبرا قليلا .. فالشبه لا يتضح الا فى مرحلة متأخرة من العمل

ومنذ بدأ لوران فى رسم كاميلوس ، وتيريزا تقضى كل الوقت تقريبا فى حجرة النوم التى تحولت الى مرسم .. تاركة عمتها وحدها فى المتجر ، منتهزة اول فرصة وتتعلل باتفه المعاذير لتصعد الى المسكن وتنسى نفسها وهى ترقب لوران اثناء الرسم ..

ترقبه وهى دائما على حالها المعهود من الجد والصمت .. بيد انها كانت اكثر شحوبا من المالوف ، واكثر جمودا ، اللهم الا عيناها فهما تتبعان حركة الفرشاة فى يد لوران . ولم يكن فى ذلك الذى تشهده عيناها ما يتيح لها تسلية خاصة ، فهى تأتى الى هناك كالمغلوبة على امرها ، تسيرها قوة ما .. ثم تبقيها حيث هى كالمسمرة فى موضعها خلف ظهر لوران

وكان لوران يلتفت احيانا اليها ويبتسم ، ويسألها عن رايها فى الرسم فقلما كانت تجيبه . وترتجف قليلا ثم تعود الى استغراقها فى نشوتها الصامتة . وفى كل ليلة ، كان لوران وهو عائد بمفرده الى مسكنه فى شارع القديس فيكتور يحاور نفسه محاورات طويلة ، تدور كلها حول موضوع واحد هو : هل ينبغى او لا ينبغى له ، ان يتخذ تيريزا عشيقة !

كان يقول لنفسه :

ــ هذه المراة الشابة على استعداد تام كى تكون عشيقتى فى أى وقت اشاء ، فهى دائما رابضة ورائى تنظر الى من ظهرى .. تقيس ابعادى .. وترننى . واذا كلمتها ارتعشت، وفى عينيها نظرةغريبة، ولم تستطع ان تنطق بكلمة واحدة .. فمما لا شـك فيه انها فى مسيس الحاجة الى عشـيق ، فهـذا شىء ظاهر فى عينيها ... وكاميلوس عشيق من نوع واهن للغاية بكل تأكيد ..

ويضحك لوران ضـحكة صامتة ، وهو يتذكر صديقه الهزيل الشاحب الوجه ، ثم يستطرد فى حواره مع نفسه :

ــ لا شك فى انها سأمى الى حد الموت فى هذا المتجر الحقير .. وانا شخصيا لا اذهب الى هناك بانتظام الا لاننى لا ادرى اين اقضى وقتى ، وليس امامى موضع آخر . ولولا هذا لما وقع ظلى على ممر القنطرة الجديدة ، فالجو هناك مشبع بالرطوبة موح بالانقباض. واية امراة شابة لابد ان تذوى وتموت لو قضت وقتها كله هناك .. وهى ميالة الى • هذا شىء لاشك فيه ، فلماذا لا آكون أنا عشيقها ، فاننى اذا لم أقدم على ذلك كانت من نصيب غيرى حتما ، لانه لابد لها من رجل ؟

ووقف على ضفة السين يرقب الماء فى جريانه ، وهو شـارد يسترجع ذكريات صبواته وجولاته :

ــ لم لا ؟ .. سأقبلها فى اول فرصة تواتينى .. وانا واثق انها ستسقط على الفور فاقدة الارادة بين احضانى ..

واستانف سيره .. وبدأ يشعر بالتردد والاحجام :

ــ ولكنها على كل حال قبيحة الشـكل .. لها انف طويل وفم واسع . ثم انا لا اشعر نحوها بالحب ، لا اكن لهـا اية عاطفة ولعلنى ازج بنفسى فى مأزق بهذا التهور .. فمن الخير ان اتـروى فى الامر

ولوران شاب شديد الحذر .. لذا ابقى هذه المسألة قيدالبحث والمراجعة اسبوعا اخر . واخذ يحسب حساب كل عقبة ممكنـة وكل ضرر محتمل . واخيرا قرر الا يقدم على تلك المجازفة الا اذا

ثبت لديه بالدليل القاطع ان تلك العلاقة ستكون بأكملهـا فى مصلحته ..

والحقيقة ان تيريزا كانت فى نظره قبيحة لانه لم يكن يضمر لها حبا .. ولكن فى مقابل هذا كانت عشيقة « اقتصادية » لن تتقاضاه فرنكا ، ولن تكلفه اية نفقة .. ثم ان النساء اللواتى كان فى متناول يده شراؤهن بنقوده المحدودة ، لم يكن مستوى جمالهن اعلى من مستواها، ولم يكن يضمر لهن من الحب اكثر مما يضمره لها ..

فالعامل الاقتصادى هو الذى رجح لديه الاستيلاء على زوجـة صاحبه .. يضاف الى هذا انه منذ مدة طويلة لم يتصل بامراة ، ولهذا فهو مشوق الى الترفيه عن نفسه وتدليل شهواته والتوسعة عليها .. ثم ان مثل هذه العلاقة ليس منها ادنى خطـر ، لان من مصلحة تيريزا نفسها أن تخفى معالمها وتكتم امرها اشـد كتمان .. فيتسنى له فى اية لحظة ان يقطع الصلة بغير مقاومة من جانبهـا . وحتى على فرض ان كاميلوس اكتشف الحقيقة فى وقت من الاوقات واقدم على الثورة والغضب ، فضربة واحدة من قبضة يده كافيـة لرده الى صوابه . وهكذا تراءى للوران من جميع الجوانب ان المسألة هينة رابحة لا غرم عليه فيها ..

ومنذ اتخذ هذا القرار ، وهو يعيش مطمئن النفس واثقـا من النصر فى انتظار اللحظة المناسبة ، لانه قرر أن يقدم على العمـل بجسارة عند اول فرصة .. ورسم له خياله صـورة مزخرفة لامسيات المستقبل التى سيكون فيها موضع التدليل والعناية من جميع افراد اسرة راكان .. فتيريزا ستتولى فى الخفاء تهدئة الثائر من دمائه ، ومدام راكان ستدلله تدليل الام .. وكاميلوس سيتولى بأحاديثه تسليته حتى لا يسرى الى نفسه السأم والملل ..

وأوشكت الصورة على الانتهاء ، ولم تسنح بعد اية فرصة لابتداء الهجوم .. أجل ان تيريزا كانت دائما هناك بصمتها وقلقها ، ولكن كاميلوس كان لا يغادر الحجرة اطلاقا . ولوران يكاد يطبق عليـه اليأس لانه لا يستطيع ابعاده ولو لمدة ساعة . واخيرا حل اليـوم الذى يقول فيه انه سيفرغ من الصورة فى اليوم التالى . واعلنت

مدام راكان انهم سيتناولون العشاء معا ، ويشربون نخب الآية الفنية الرائعة !

وفى اليوم التالى ، عندما وضع لوران آخر لمسة من لمساته على اللوحة ، اجتمعت الاسرة حوله لتبدى اعجابها لشدة التشابه بين الاصل والصورة . وكانت الصورة فى الحقيقة حقيرة الصنع يغلب عليها اللون الرمادى القذر مع بقع حمراء كبيرة . وكان الرسام قد بالغ فى ابراز شحوب نموذجه حتى بدا وجه كاميلوس فى الصورة أبيض ضاربا الى الخضرة كوجوه الغرقى . ولكن كاميلوس كان مبتهجا جدا ، وخيل اليه ان منظره فى الصورة يدل على الاناقة والترفع ..

وبعد ان اشبع كاميلوس هواه من الاعجاب بوجهه وملامحه المصورة بريشة لوران ، اعلن انه ذاهب الى مرفأ النبيذ ليشترى زجاجتين من الشمبانيا لاحتفال الليلة .. وعادت مدام راكان الى المتجر .. وبقى الفنان بمفرده مع تيريزا فى حجرة النوم التى اتخذها مرسما ..

وبقيت المراة الشابة حيث هى جالسة خلفه ، تحدق فى الفضاء .. وبدا عليها كأنها تنتظر شيئا ما بتوتر شديد . وتردد لوران ، واخذ ينظر الى الصورة ويعبث بأدواته والوانه فى اضطراب. وكان يعلم انه ليس فى الوقت متسع ، فكاميلوس قد يأتى بعد نصف ساعة أو أكثر قليلا .. وربما افلتت الفرصة الى الابد من يده

وجمع امره .. ودار حول نفسه دورة مفاجئة ، فصار وجها لوجه أمام تيريزا .. وتبادلا النظرات الصامتة بضع ثوان ، ثم انحنى لوران بحركة عنيفة خاطفة الى الامام ، وضم المراة الى صدره ، وهى جالسة فجعلت هذه الحركة راسها ينثنى الى الخلف، فاطبق على شفتيها يكاد يمزقهما ويسحقهما بشفتيه وأسنانه .. وقاومته فى ثورة ضارية مدى لحظة ، ثم فجاة تلاشت كل مقاومة ، ووقعت شبه مغشى عليها ، على الارض العارية .. ولم يكلف نفسه ان يرفعها من سقطتها ..

وعندما عاد كاميلوس يحمل فى يديه زجاجتى النبيذ مهللا ، كان كل شىء فى الحجرة كما هو .. وتيريزا جالسة فى موضعها على المقعد كأن شيئا لم يحدث ..

الفصل التاسع

انطلاق

ومنذ البداية كان العاشقان يشعران ان علاقتهما ضرورية ، محتومة ، لا مفر منها ، وانها طبيعية للغاية .. وفى أول مرة التقيا فيها بعد موقعتهما الغرامية الاولى ، تحدث كل منهما الى الاخر ببساطة وبغير تكلف ، وتبادلا القبلات خلسة على اشتياق وبغير تحرج او تضرج الوجه بحمرة الخجل .. كأن افضاء كل منهما الى الاخر يرجع الى سنوات ماضية .. فهما على سجيتهما تماما فى هذه العلاقة الجديدة ، بكل ثبات وطمأنينة نفس وبلا حياء ..

وقررا على الفور طريقة اللقاء . ولما كانت تيريزا لا تستطيع ان تغادر البيت ، اتفقا على ان يأتى لوران للاجتماع بها تحت سقف الدار . وكانت المراة هى التى وضعت الخطة ، واقترحتها عليه بصوت هادىء واضح مطمئن .. وسيكون التلاقى دائما فى حجرة نومها .. فلتلك الحجرة ، كما ذكرنا آنفا ، باب يفضى الى دهليز به سلم خشبى يؤدى الى ممر القنطرة الجديدة . وفى استطاعة تيريزا ان تفتح له ذلك الباب فى الموعد المتفق عليه . وفى هذه الاثناء يكون كاميلوس فى مكتبه ، وتكون مدام راكان فى المتجر

ووافق لوران على هذه الفكرة ، فقد كان على الرغم من حذره الشديد يتمتع بضرب من الشجاعة الحيوانية والجسارة .. واغراه هدوء عشيقته وتلهفها على الاجتماع به .. فلما كان اليوم التالى ، انتحل عذرا لمدير ادارته كى يسمح له بالخروج والعودة بعد ساعتين ، ثم أسرع الى ممر القنطرة الجديدة ..

وما ان وطئت قدماه بداية الممر حتى شعر بالحيوان النائم فى دمه يتمطى ويتحفز للوثوب . وكانت المراة التى تبيع المجوهرات

المقلدة جالسة فى مواجهة الباب الجانبى الذى سيتسلل منه لوران .. فكان عليه أن ينتظر ريثما تنشغل بعميل أو بشىء . وبعد قليل جاءت فتاة صغيرة لتشترى منها خاتما . فأسرع بالتسلل الى الدهليز ، وصعد السلم الخشبى الضيق المظلم وثيابه تحتك بالجدار القذر من اثر الرطوبة المتراكمة . وكلما وطئت قدمه درجة فى السلم ، شعر بقلبه يثب داخل صدره .. ثم انفتح الباب ورأى على عتبته تيريزا وهى تنتظره ، وشعرها معقود فوق مؤخرة راسها. واغلقت الباب وراءه ، ثم تعلقت بعنقه ، واحس من رائحة الصابون المعطر تنبعث من اردافها لاول وهلة انها قضت وقتا طويلا هذا الصباح فى الاستحمام ، وانتقاء احسن ثيابها البيتية وارقها وانصعها بياضا ..

ودهش لوران فى هذه المرة لانه اكتشف ان عشيقته جميلة ! حتى لقد خيل اليه انه لم ير المراة الماثلة امامه من قبل .. فهى قوية البنية ، مرنة الحركة ، كل شىء فى تكوينها قوى منطلق .. تعانقه بقوة ، وتتوالى على صفحة وجهها ومرآة عينيها عشرات من الانفعالات القوية الواضحة السافرة الغنية بالعاطفة والحيوية .. ولها ابتسامة معبرة منتشية يتغير بها منظر سحنتها كله .. التى امامه الآن امراة عاشقة ، استطاع العشق القوى العميق ان يغير معالمها بما ابتعثه من قوى دافقة ، وما فجره من ينابيع فى أعماق كيانها الذى كان حتى اليوم خامدا مطمورا مجهولا من الدنيا

وشعر لوران بالزهو الشديد لان انوثتها الطاغية كانت نائمة لم توقظها احضان كاميلوس الضعيفة الخائرة ..

ولم يكن لوران قد عرف من قبل امراة من هذا الطراز .. فخالط زهوه بنفسه شىء من القلق والخوف

وفى اليوم التالى ، بعد ان ثاب الى هدوئه وطريقته المألوفه فى المراجعة والموازنة وحساب الارباح والخسائر ، اخذ يسأل نفسه هل من الخير له ان يعاود زيارة تلك العشيقة التى اسكرته بقبلاتها المحمومة وانوثتها المنطلقة .. وقرر فى بداية الامر ان يثبت للغواية ويبقى فى البيت . وبعد قليل بدأ يضعف لان صورتها وهى بين ذراعيه اخذت تتراءى لعينيه .. وحاول أن يغض النظر عن تهاويل

مخيلته ، ولكن خياله لم يرحمه .. فهو ان لم يتمثل امامه ذراعيها مفتوحتين لاحتضانه ، راى وميض عينيها اللتين تشعان الحب والامتنان والرجاء .. فانهارت مقاومته ، وذهب الى المتجر كعادته، ورتب معها خلسة موعدا للقاء فى ضحى اليوم التالى ، على غرار الموعد الاول ..

ومنذ ذلك الحين صارت تيريزا جزءا لا يتجزا من حياته .. فلئن لم يكن راضيا بعقله عن علاقته بها كل الرضا ، الا انها كانت مسيطرة عليه سيطرة تامة .. وكثيرا ما كان يتصبب عرقا من شدة الخوف والتفكير فى العواقب ، ثم لا تلبث تلك المخاوف ان تنهار امام رغبته المتقدة .. فتعود العجلة الى الدوران ، وتعود الاجتماعات الى التعاقب بمزيد من الانتظام والتواتر ..

اما تيريزا فلم تكن من جانبها تعانى شيئا من هذا القلق اوتلك الشكوك والاوهام ، فهى تمنحه نفسها بلا احتجاز وبلا تفكير .. منطلقة مع عاطفتها وانوثتها لاتسألهما الى أين ينتهى بها هذا الانسياق .. مثلها كمثل الماء الذى كان مكتوما فى جوف الارض ، ثم نبشت عن وجوده يد نابش ، فتدفق ينبوعا جزلان بتدفقه ، ولا هم له الا تعويض ماقضاه من احتجاز غاشم فى جوف الثرى !

وكانت فى بعض الاحيان تطوق عنقه بذراعيها ، وتضع راسها على صدره ، وتقول له بصوت مضعضع :

ـ آه لو علمت كم قاسيت فى ماضى حياتى ! كنت اعيش فى حجرة مقفلة ساخنة الهواء رطبة مع انسان عليل .. وكنت منذ طفولتى أنام فى فراش كاميلوس ، فأجتهد اثناء الليل أن ابتعد بجسمى عن جسمه قدر المستطاع ، لان رائحة جسمه المريض كانت تصيبنى بالغثيان . ولكنه كان عنيدا خبيثا يأبى ان يتناول الدواء الا اذا شاركته فيه ، فكنت افعل ارضاء لعمتى .. والله أعلم كم من انواع العقاقير الكريهة شربت ، حتى أننى لا أدرى كيف لم تقتلنى هذه الخبائث ! لقد جعلانى قبيحة وخيمة الشكل والحياة والعقل .. سرقا منى كل حقوق انوثتى .. ولذا أحببتك بعنف لن تقدر انت ان تحبنى بمثله !

وبكت وقبلت لوران ، ثم استطردت :

ـ انا لا اتمنى لهما السوء ، فقد ربيانى .. آويانى وكفيانى شر الحاجة . ولكنى كنت افضل على هذا الايواء المضياف ، أن ينبذانى تحت رحمة المقادير ! كنت أتحرق شوقا الى الهواء الطلق ، واتمنى وانا طفلة ان اترك لاتجول حافية القدمين ، اتسول اللقمة وأعيش كما يعيش الغجر والبوهيميون . وكنت أعلم ان الدم الافريقى الحار يجرى فى عروقى .. وانا الان أشعر بالغثيان كلما تذكرت الايام الطويلة التى قضيتها فى حجرة كاميلوس ، وهو يئن ويحتضر .. وانا لا أجسر على الحركة ، لان عمتى كانت تؤنبنى ، اذا احدثت أقل صوت . فلما كبرت قليلا وقمنا على شاطىء السين فى ذلك البيت الريفى شعرت ببعض السعادة .. ولكنهم لم يتركونى هناك طويلا فسرعان ما أتوا بى الى هنا ، ودفنونى حية فى هذا المتجر البغيض..

وزفرت تيريزا ، ثم شددت احكام ذراعيها حول عنق عشيقها ، وقالت :

ـ لا يمكن ان تتصور كم اساءوا الى وغرسوا فى نفسى الشر ، الام والابن وصحابهما .. علمونى النفاق ، والكذب ، والنعومة المزيفة ، واغضاء الطرف ، وكتمان الاحساس . واعتقد انك عندما رايتنى حسبت اننى بلهاء .. كنت ابدو بلهاء ، اليس كذلك ؟ كنت دائما شاردة افكر فى أمل واحد للخلاص : ان القى بنفسى فى ميـاه السين يوما ما . ولست ادرى ما الذى جعلنى أرضى بالزواج من كاميلوس ، لم ابد اعتراضا ، وتزوجته بلا اكتراث .. والحقيقة انه كان من الطفولة باستمرار بحيث اثار اشفاقى وعطفى ، فكنت عندما العب معه اشعر بأصابعى تغوص فى لحم اطرافه كانه صلصال .. فقبلته زوجا لان عمتى اعطتنى اياه ، ولاننى وطنت نفسى على الا اغير شيئا من طريق حياتى بسببه .. وفعلا وجدت فى زوجى بعد الزواج ما كنت أجده قبله من الغلام المريض الذى شاركتـه الفراش منذ السادسة من عمرى .. فهو بعينه فى ضعفه وخوره وانانه ورائحته التى تثير الغثيان .. وانا اروى لك هذا كله حتى لا تشعر بالغيرة ..

وجلست تيريزا وقد غرست اصابعها فى يدى لوران الكبيرتين ، وراحت تنظر بهيام الى كتفيه العريضين وعنقه الغليظ ، ثم هتفت:

ـ أما أنت ! فأحبك .. لقد احببتك منـذ اليوم الذى اتى بك كاميلوس الى المتجر . ولعلك فى اعمـاق نفسك تزدرينى ، لانى اسلمت لك نفسى بلا مقاومة ، وعلى الفور .. وانا نفسى لا ادرى كيف حدث هذا .. فانا متكبرة حادة الطبع . واول ما خطر لى عندما قبلتنى لاول مرة ، ان اضربك بشىء على ام راسك . ولكنى لم اشعر الا وراسى يدور ثم القيت بى على الارض .. هنا فى هذه الحجرة .. اتدرى انى شعرت بغيظى الاول ، وقد انقلب حبـا جنونيا ، لانك كنت جريئا متلهفا .. اخذت من غير ان تطلب .. ولم تترفق بى فتحملنى الى الفراش على بعد خطوتين !.. هذا مع انى طول مدة ترددك لرسم الصورة ، كنت أشعر بقـوة اشـبه بالكراهية من نحوك .. لان منظر جسمك القوى كان يثير اعصابى ، ويسبب لى العذاب ، واشـعر كأن رأسى خاو ، وانى عاجزة عن التفكير واعصابى مشدودة تكاد تنفجر .. وكأن قوة القدر نفسها تشدنى الى موضعك ، رغم ما يسببه لى قربك من عذاب . وكنت اعلم ان موقفى سيىء ، لانى ابدو كمن تستجدى منك القبلات .. فلو انك لمستنى فى اية لحظة لسقطت على الارض . وكلما نظرت الى كنت أرتجف وأتصبب عرقا ، وكل أعماقى تنتظر على مضض ان تتنازل فتضمنى بين ذراعيك وتأخذنى اليك ..

وسكتت تيريزا .. وآذن ذلك اللقاء بانتهاء ..

وفى كل لقاء جديد كانت فنون جديدة من النشوة تطرا عليهما .. لان المراة العاشقة كانت تتفنن فى ابتكار الجراة وخلع العـذار ، لا تخشى شيئا ، ولا تتردد امام شىء .. تجد فى تهتكها زهوا

وعندما يحين موعد عشيقها لم تكن تتخذ ادنى حيطة سوى ان تخبر عمتها انها ستصعد الى حجرة نومها لتستريح قليلا .. ومتى جاء كانت تمضى فى الحجرة على جيئتها ، فتسير وتتكلم وتتحرك بكل حرية ، ولا تفكر فى اجتناب الضوضاء . وكان لوران فى بداية العلاقة ، يصاب بالذعر احيانا ويهمس :

ـ احذرى ياتيريزا ! .. ما كل هذه الضجة ؟ .. مدام راكان قد تصعد فى اية لحظة لاستطلاع الامر

فتجيبه ضاحكة :

— هذا هراء ! مالك ترتجف هكذا .. انها كالمسمرة فى مقعدها بالمتجر ، ولا يمكن ان تفارقه لانها تخشى السرقة .. ثم فلنفرض انها صعدت . لا بأس .. فى استطاعتك ان تختبىء بسرعة ، فهى لا تقلقنى ولا أريد ان افكر فيها ولا فى اى شىء ونحن معا ..

وشيئا فشيئا تعود لوران هذا الجو ، وتقبل تلك الاجتماعات المختلسة فى وضح النهار ، وفى حجرة نوم كاميلوس ، وعلى بعد خطوات معدودات من مدام راكان العجوز . وكانت عشيقته تؤكد له دواما ان الخطر لا يحيق بمن يواجهونه بشجاعة. وكانت فى ذلك على حق ، فليس للعاشقين من مكان للقاء آمن من هذا المكان .. ففى هذه الحجرة لن يفكر احد فى البحث عنهما ، وهكذا اتاحت لهما تلك الخطوة ان يشبعا هواهما فى انطلاق لا نظير له ..

ولكن حدث ذات يوم ان صعدت مدام راكان فعلا ، لان العجوز خشيت ان تكون بنت اخيها مريضة بصورة جدية . وكانت المراة الشابة قد قضت فى ذلك اليوم قرابة ثلاث ساعات بحجة الراحة . وبلغ من جسارتها انها لم تغلق باب حجرة النوم بالمزلاج ، وهو ذلك الباب المفضى الى حجرة الطعام

فلما سمع لوران خطوات مدام راكان الثقيلة على الدرج الخشبى وهى صاعدة ، استولى عليه الذعر واخذ يبحث بسرعة عن سترته وقبعته . ولكن تيريزا اخذت تضحكمن غرابة شكله فى تلك اللحظة، وقبضت على ذراعه واكرهته على الانكماش فى ركن الفراش تحت قدميها ، وقالت له بصوت هادىء :

— لا تهتم بشىء .. ابق هنا ولا تتحرك ..

وكدست فوقه ثيابه التى كانت مبعثرة . وفوق ثيابه بسطت ثوبها الذى كانت ترتديه فى المتجر ، وخلعته عند صعودها .. ثم اضطجعت فى فراشها بكل اطمئنان وهى نصف عارية وشعرها مشعث ووجهها متوهج ..

وفتحت مدام راكان الباب بلطف ، واقتربت من الفراش وهى تسير على اطراف اصابعها .. وتصنعت المراة الشابة النوم ، اما لوران فكان يتصبب عرقا ..

وسألت مدام راكان بنت اخيها بحنان :

— تيريزا .. هل انت مريضة ياطفلتى ؟

ففتحت « طفلتها » عينيها ، وتثاءبت ، وتقلبت فى مضجعها ، وشكت من صداع حاد ، ثم طلبت من عمتها ان تتكرم بتركها لتنام ساعة اخرى . فانصرفت العجوز بهدوء كما دخلت . وما ان اغلقت الباب خلفها حتى تعانق العاشقان وهما يغالبان الضحك ، وقالت تيريزا بلهجة الانتصار :

— هانتذا ترى الآن انه ليس لدينا ما نخشاه منهما .. فهما اعميان .. لا يريان شيئا لانهما ليسا عاشقين !!

وفى يوم آخر خطر للمراة الشابة خاطر غريب .. وما اكثر طرائفها التى تبدو بها احيانا كالمجنونة : فقد كان القط فرانسوا مقعيا فى وسط الحجرة تماما يرقب العاشقين بعينيه المستديرتين ، وهو صامت لا يتحرك ، وكأنه يدرسهما باهتمام .. فلا تطرف عينه ولا تتحول عنهما . فصاحت تيريزا قائلة للوران :

— انظر الى فرانسوا ! سيخيل اليك على الفور انه يفهم مانصنع، وانه فى هذه الليلة سيفضى الى كاميلوس بكل شىء .. أليس مضحكا ان يشرع فرانسوا فجأة فى الكلام اثناء سهرتنا فى الدكان ؟ واؤكد لك ان لديه عنا قصصا مثيرة يرويها ..

وكانت فكرة اقتدار فرانسوا على الكلام تروق لها وتبهجها .. اما لوران فنظر الى عينى القط الكبيرتين الخضراوين ، وسرت فى اوصاله رجفة . واستطردت تيريزا :

— وهاك ما سيفعل فرانسوا : انه سيقف فجأة ويشير باحدى قائمتيه الاماميتين الى وبالقائمة الاخرى اليك انت ، ويقول : «هذا السيد وهذه السيدة يتبادلان قبلات حارة فى حجرة النوم ، واشياء اخرى لست بحاجة الى ذكرها . وكانا لايرعيان لوجودى حرمة .. وبما ان علاقتهما الغرامية تشمئز لها نفسى ، فأنا اطلب منك ان تزج بهما فى السجن كى اتمكن من النوم بهدوء قرب الظهر ! »

واخذت تيريزا تقلد القط فى مرح الاطفال ، وتمد أصابعها ، وتقوس كتفيها ..وفرانسوا ينظر اليها ولا يتحرك ، وتكاد الثنايا الصغيرة حول فمه ان تشبه ضحكا مكتوما .. اما لوران فانزعج لهذا التخيل ، ووثب من الفراش ، فطرد القط من الحجرة وهو يشعر بخوف حقيقى ..

الفصل الثامن

طمأنينة

شعر لوران انه فى غاية السعادة ، فهو يقضى امسياته فى المتجر ، وغالبا ما يعود من المكتب مع كاميلوس . وكانت مدام راكان قد شعرت نحوه بحب امومى واضح ، حتى انها اكدت له تخصيص مكان على مائدة الاسرة باستمرار . ولعل الشاب كان يمثل فى سريرتها موطنها الاصلى ، ويثير لديها ذكرياتها الحبيبة التى تفتقدها كل عجوز نازحة الى موضع غريب ..

واستغل الشاب تلك الضيافة الكريمة المتاحة له أحسن استغلال ، فعند مغادرة المكتب يحرص على التنزه سائرا على قدميه بين إرصفة السين فى صحبة كاميلوس . ويثرثران فى موضوعات كثيرة الى أن تتفتح شهيته للأكل تفتحا تاما ، فيتجهان الى ممر القنطرة الجديدة ، ويدفع لوران باب المتجر وكأنه صاحب الدار . ويضطجع فى مقعد ويمد ساقيه الى مقعد آخر ، ويدخن غليونه وينثر بصاقه وكأنه فى بيته أو بيت أبيه ..

ولم يكن وجود تيريزا يضايقه على الاطلاق ، لانه يعامل المرأة الشابة معاملة ودية مستقيمة لا تلعثم فيها او تحرج .. فيضاحكها ويوجه اليها عبارات المجاملة المعتادة فى مثل تلك المجتمعات العائلية من غير ان ينم وجهه عن شيء . وكان كاميلوس يضحك من تحرج زوجته واجابتها عن عبارات صديقه بمقاطع مقتضبة . وكان يعتقد أن تيريزا ولوران لا يطيق احدهما الآخر ، حتى انه وجه الى تيريزا اللوم ذات ليلة لما اسماه فتورا غير لائق نحو لوران ! ..

وهكذا صح ما تنبأ به لوران بحذافيره : فها هو ذا قد اصبح عشيق الزوجة ، وصديق الزوج ، والطفل المدلل للأم العجوز

يتحفه بأطايب الطعام والشراب. فلم يكن فى اية فترة من حياته مكفى الحاجة كما هو الآن .. جميع رغباته وشهواته تجد شبعها ، فكأنه سلطان يعيش فى عصر الحريم . والادهى من هذا ان وضعه فى الاسرة كان يبدو له طبيعيا للغاية ، فيتحدث طول الوقت مع كاميلوس بألفة تامة .. من غير غضب ، ومن غير ان يساوره ادنى شعور بالندم ، بل انه لم يكن يراقب حركاته وكلماته لفرط ثقته بحذره الفطرى وتحكمه فى سلوكه ، فلم تبدر منه غلطة واحدة تثير الريبة فى أمره .. فعشيقته حين تكون فى المتجر تصير امراة مثل اية امراة اخرى ، فلا يفكر فى تقبيلها .. وكأنها غير موجودة بالنسبة له، لانه كان يعلم انه لو فضح نفسه بحركة واحدة فلن يعود الى تلك الجنة . وكان هذا الجزاء القاسى كافيا لايقافه عند حده . ولولاه لما اهتم اطلاقا بحزن كاميلوس أو حزن أمه . فهو يتصرف ببساطة التصرف الطبيعى الذى كان يبديه اى رجل آخر يهيمن عليه الجوع والفقر . وهذا هو سر اخلاده الى الهدوء وتمسكه بالطمأنينة التى يتمتع بها هناك من غير مجهود

اما تيريزا فهى أشد عصبية منه ، ولهذا فهى اكثر توترا ، ومضطرة الى بذل مجهود لتمثل دورا .. ولكنها فى الواقع كانت تتقن اداء الدور اتقانا عظيما ، والفضل فى ذلك الى النفاق الماكر الذى اكتسبته بحكم ظروف نشأتها . فقد ظلت زهاء خمس عشرة سنة ، وهى تكذب وتخنق عواطفها وتئدها ، مسخرة كل ارادتها كى تبدو بليدة الحس جامدة العواطف . فلم يكن من العسير عليها بعد ذلك أن تتصنع الجمود والموات ، وتحيل وجهها الى قناع مثل اقنعة الموتى ..

وعندما كان يحضر لوران كان يجدها رزينة وقورا مشدودة الملامح ، بحيث يبدو انفها اطول من مألوف عهده ، وشفتاها ارق من المعتاد . فيكون منظرها عندئذ اقرب الى الدمامة ، والكآبة تحيطها بسياج يجعل الوصول اليها والتبسط معها عسيرا .. بيد انها فى الوقت نفسه لم تكن تبالغ فى هذا التصنع ، فلا تتجاوز به كثيرا من حدود انطوائها المعهود فيها

وفى اعماق نفسها كانت تجد لذة مريرة فى خداع كاميلوس ومدام

راكان وادخال الغفلة عليهما . ولكنها لم تكن تشعر بما يشعر به لوران من الارتياح لما يناله من اشباع غرائزه ورغائبه بلا ندم أو تحرج . بل هى فى الواقع كانت تعلم انها ترتكب اثما .. ولكنها مزهوة بهذا الاثم ـ وكم من لحظة راودتها نفسها أن تنهض من على مائدة العشاء فتقبل لوران على شفتيه كى ترى زوجها وعمتها انها ليست دميمة ولا كمية مهملة ، وان لها عشيقا وسيما فتيا ..

وفى بعض الاحيان ، كانت موجات من الفرح تطفى على ذهنها ، فتشل قدرتها على التمثيل، وتضطرب بغير مناسبة مترنحة بأغنيات مرحة ، بشرط الا يكون عشيقها موجودا حتى لا تفضح نفسها ..

وكانت هذه الانطلاقات الفجائية المرحة تفتن مدام راكان التى كانت مهمومة فيما مضى لافراط بنت اخيها فى الجد . ونظرت بعين الرضا الى اهتمام تيريزا اخيرا بشراء أصص للازهار زينت بها نافذة حجرة نومها ، ثم زاد اقبالها على الحياة فغطت جدران المخدع بأوراق جديدة زاهية اللون .. وطلبت بساطا جديدا وستائر وأثاثا من خشب الورد ..

وكل هذا البذخ من أجل لوران ..

وكانما كانت الطبيعة والظروف قد اتفقت على أن تجعل هذه المراة لهذا الرجل ، وان تدفع كلا منهما بين أحضان الاخر .. فالمراة القوية الموءودة العواطف ، والرجل القوى الذى يعيش بتكوين حيوان فتى ، بينهما رباط وثيق يزيد على الايام اشتدادا .. فكل منهما يكمل الاخر ، ويحمى الآخر . وفى المساء ، على مائدة العشاء وفى ضوء المصباح الشاحب كان المتفحص يستطيع أن يرى مبلغ ما بين هاتين السحنتين من توافق طبيعى رغم المظهر الخادع

وانها لامسيات هادئة لطيفة يشيع فى جوها الساكن ود مستطاب .. يجلس فيه الاربعة الى المائدة فيأكلون بشهية طيبة ، ثم يتحدثون بعد تقديم الحلوى عن كل تفاصيل ذلك اليوم ، وعن ذكريات الامس وآمال الغد . وكاميلوس يبدو شغوفا بلوران ، ولوران يجزيه على مودة بمودة .. فبين الشابين تيار لا ينقطع من مصطلحات التدليل وايماءات المودة ونظرات الاعزاز . ومدام راكان بوجهها الهادىء تفيض السلام والهدوء على الهواء الذى يتنفسه اطفالها الثلاثة ..

وكان فى وسعك ان تقول ان هذه الجمعية كانت نموذجا مثاليا للصفاء والاخلاص !

وكانت تيريزا ترقب فى هدوئها وصمتها كل شىء .. وهى فى اعماقها تضحك ضحكات وحشية وتسخر بكل كيانها من الموقف ، فى الوقت الذى يحتفظ فيه وجهها بسكون الاسارير التام والفتور . وتسلى نفسها خلسة بأنها منذ ساعات قلائل كانت فى الحجرة المجاورة مسدلة الشعر عارية النحر ملقية بنفسها فوق صدر لوران . وتسترجع وتجتر كل تفاصيل ساعة غرامها بعد ظهر ذلك اليوم وتقارن فى تلذذ بين ذلك المشهد المضطرم والمشهد الميت الذى يقع الان تحت سمعها وبصرها ..

اه ! كم تمعن فى خديعة هذين الانسانين الطيبين ! وما أسعدها بخديعتهما تلك الخديعة الظافرة التى لا حياء فيها ! ولم يكن ذلك الا على بعد خطوتين ، وراء ذلك الحاجز الرقيق. والآن هاهو ذا عشيقها وقد ارتد وكأنه غريب عنها تماما .. مجرد صديق لزوجها ، أشبه بفضولى أبله ثقيل الظل ينبغى ألا تلقى اليه بالا ..

وكانت هذه المهزلة المتناقضة الحواشى والفصول ،تجعلها تتأرجح بلا هوادة بين قبلات النهار المحترقة الجارفة ، وبين عدم المبالاة المموه فى الليل ، فيثير ذلك فى عروقها الشابة مزيدا من الاشواق الطائشة !

وعندما كان يحدث فى بعض الاحيان أن تنزل مدام راكان هى وكاميلوس الى المتجر ، كانت تيريزا تثب من موضعها كالهرة وتنقض بشفتيها فتضغط فى صمت على شفتى عشيقها بحرارة عاتية . وتظل مطبقة عليهما وهى تلهث الى أن تسمع وقع أقدام تصعد الدرج الخشبى . وعندئذ ترتد بحركة مفاجئة الى مجلسها متخذة مظهر الوجوم كما كانت . ويستأنف لوران بكل هدوء ما انقطع من حديثه وسمره مع كاميلوس ، وكان ما وقع فى تلك الفترة كان نوعا من ومض البرق الصاعق الصامت الخاطف للأبصار فى سماء ساكنة من قبل ومن بعد !

وفى أيام الخميس كانت الامسيات تتصف بمزيد من الحيوية ، فلوران الذى يكاد يموت ضجرا بتلك السهرات كان يحرص على

الحضور مع اظهار الحبور والتلطف الى الجميع .. لانه كان يعتبر ذلك تدبيرا من تدبيرات الحيطة ، فهو حريص على أن يعرفه أصدقاء كاميلوس ويحبوه .. ويحمل نفسه على التجلد لهذر جريفيه وميشو العجوز الذى يعيد أقاصيصه بحروفها التى لا تتغير عن جرائم القتل الغامضة ومغامرات اللصوص التى عاصرها . وأما جريفيه فيتحدث دائما عن العمل والموظفين والرؤساء . ولكنه كان يجد شيئا من الراحة بالنسبة لاوليفييه وزوجته سوزان .. وكان فى كل ليلة اول من يطالب بابتداء مباراة الدومينو

وفى أمسيات الخميس هذه ، كانت تيريزا تحدد يوم وساعة اللقاء بينها وبين عشيقها . وتنتهز لحظة اللغط والاضطراب التى تسود انفضاض السهرة وخروج الضيوف ، وقيام مدام راكان وكاميلوس بتوديعهم الى الباب الخارجى المفضى الى الممر ، فتقترب الشابة من لوران وتتعلق بعنقه وتهمس فى اذنه بالموعد

واستمرت هذه الحياة المتأرجحة بين الاضطراب والاستمتاع والتمويه ثمانية أشهر ، قضاها العاشقان فى نشوة كاملة ورضا تام عن الدنيا .. لا يتمنيان شيئا وراء دوام تلك الحال

الفصل التاسع

حوائل

وذات نهار كان لوران على أهبة مغادرة مكتبه بحسب الاذن الممنوح له من قبل ، ليلتقى بتيريزا ثم يعود بعد ساعتين ، واذا برئيس الكتبة يرسل اليه ويخبره أنه ليس فى استطاعته مستقبلا ان يتغيب عن مكتبه هاتين الساعتين ، وان الادارة قد لاحظت اسرافه فى انتحال المعاذير للخروج أثناء العمل .. فقررت فصله ان عاد الى ذلك !

وعاد لوران الى مقعده ، وقضى بقية ذلك النهار نهبا لليأس .. فهو مضطر الى كسب معاشه بهذا العمل ، ولا يسعه ان يتركهم يفصلونه . فلما ذهب فى المساء كالمعتاد مع كاميلوس الى المتجر ، قرأ الغضب والاستياء فى وجه تيريزا ونظراتها .. وعذبه ذلك تعذيبا شديدا ، ولم يدر كيف يبرر لعشيقته ما فرط منه من اخلاف الوعد . وفى الوقت الذى انصرف فيه كاميلوس مع امه لاغلاق ابواب المتجر ، اقترب لوران من تيريزا على وجه السرعة ، وقال لها بصوت خفيض :

— لم يعد فى استطاعتنا ان نتقابل بعد الآن ، لان رئيسى يأبى أن يأذن لى فى تغيب تلك الفترة أثناء العمل اليومى ..

وعاد كاميلوس فى هذه اللحظة ، فكان على لوران ان يمضى من غير ان يقدم مزيدا من التدبير . وترك تيريزا مضطربة .. اشد اضطراب .. وطاش تفكيرها وأبت أن تصدق أن شيئا ما يمكن ان يعترض طريق لذاتها ، فقضت ليلة ارق طويلة تفكر فى مشروعات خيالية مسرفة لتمكينها من الاجتماع بعشيقها فى المستقبل . فلما كان مساء الخميس التالى ، لم تسنح فرصة التحدث الى لوران أكثر من دقيقة واحدة .. وكان رأس السهم فى قلقهما وجذعهما انهما فى حيرة من أمرهما

لا يدريان أين يستطيعان ان يلتقيا لمناقشة مسالتهما وتقليبها على بساط البحث للوصول الى تفاهم واضح . وتحت ضغط الضرورة حددت الشابة لصاحبها موعدا فى يوم معين وساعة معينة للحضور نهارا . ومرة أخرى تخلف العشيق ولم يستطع الحضور .. ومنذ تلك اللحظة وفى راسها فكرة واحدة : ان تراه باى ثمن ..!

ومر أسبوعان طويلان كاملان ، لم يجتمع فيهما لوران بتيريزا .. فبدأ يشعر بمدى لزومها له . فما اعتاده من اللذات الحسية قد أنشأ لديه ألوانا من الرغبة الحادة والادمان الملح ، وقضى هذا الشوق المحموم على ما كان باقيا لديه من الاضطراب وعدم الارتياح .. فصار طلبه الان لعناقها أشبه شىء بطلب الحيوان الجائع والبهيم المتضور للوجبة التى كان يعهدها بمذاق معلوم ومقدار معلوم فى اوان معلوم. وعادات الدم والاعصاب تنقلب فى الحاحها وسطوتها وتحكمها مثل عادات المعدة . وكما يجن جنون الحيوان وينقلب الكلب مسعورا تقدح عيناه بالشرر ، اذا انتزعت طعامه من بين فكيه وأبعدته عن متناوله ، فلا يبالى فى سبيل استرداده أن يقتحم الاهوال ، ولا يعرف الحذر أو الصبر ، كذلك كان حال لوران وقد أبعدوا عشيقته عن احضانه وحرموه منها وهو يراها كل ليلة وكأنها الغريبة عنه راى العيان .. فلم يبق له صبر .. ولم يبق له رشد .. وانما هو غريزة عمياء ورغبة طائشة ودم يفور .. !

وما من شك فى أنه كان حريا أن يقترف حماقة يندم عليها لو لم يتسلم رسالة من تيريزا تطلب اليه فيها أن يبقى فى بيته فى يوم معين متعللا بالمرض ، فلا يذهب الى المتجر بعد الخروج من عمله .. لانها ستوافيه فى مسكنه فى نحو الساعة الثامنة

فلما غادر المكتب تخلص من صحبة كاميلوس ، زاعما أنه متعب ويروم فى هذه الليلة أن يأوى إلى فراشه فورا ..

وبعد العشاء أدت تيريزا الجانب العسير من التمثيل ، فزعمت أن عميلة قد انتقلت من الحى وعليها بقية حساب لم تدفعه، فقررت ان تذهب اليها فى تلك الليلة لتحصيل الدين . ولما كانت العميلة تقيم فى منطقة باتينيول البعيدة ، فقد حاولت مدام راكان وكاميلوس أن يصرفاها عن تكبد مشقات هذه الرحلة .. بيد أنها أصرت فلم يعارضاها

وخرجت الشابة على عجل الى مرفأ النبيذ .. وكانت تتخبط فى سيرها بين الازقة الرطبة الموحلة المزدحمة باشخاص نصف مخمورين، حتى ظهرت قطرات من العرق على جبينها ، وارتفعت حرارة يديها ، فاشبه منظرها منظر امرأة سكرى . ثم أخذت تصعد بكل سرعة سلالم البيت الذى يسكن لوران حجرة فى أعلاه . وبعد أن وصلت لاهثة الى الطابق السابع من البناء ، رأت وجه لوران مطلا عليها من سياج السلم فى الطبقة الثامنة وهو يبتسم

ودخلت تيريزا الحجرة الصغيرة ذات السقف المائل . وكانت من الضيق بحيث يحتك جسم أى شخصين يتحركان فيها .. وبسرعة نزعت قبعتها من فوق رأسها واستندت الى الفراش المرتفع فى نصف الماء ، وكانت الكوة المفتوحة فى السقف تصب أنساما رطبة عليلة فوق الفراش الذى يكاد يحترق من الحرارة ..

وبقى العاشقان هناك برهة كأنهما دفينان فى قاع جب. ولم يشعرا بشىء مما حولهما الى أن سمعت تيريزا فجأة ساعة كنيسة قريبة تدق عشر دقات . فنهضت على عجل واستوت جالسة على حرف الفراش ، واخذت تنظر فى الحجرة الضيقة التى لم تكن قد تبينت محتوياتها بعد . وسوت شعرها وثيابها ، ووضعت قبعتها على رأسها ، واحكمت رباطها ثم قالت ببطء :

ـ الان يجب أن أذهب ..

فركع لوران بجوارها وضم يديها بين يديه ، فقالت من غير ان تتحرك :

ـ وداعا ..

فصاح كالملدوغ :

ـ لا تقولى وداعا .. اضربى موعدا محددا .. قولى متى ستأتين فى المرة القادمة ؟

فثبتت عينيها فى عينيه وقالت :

ـ أتريدنى أن أكون صريحة ؟ وهو كذلك .. الحق اقول لك اننى فى قرارة نفسى لا اعتقد انى سآتى مرة أخرى ..

ـ لماذا ؟

ـ لانه ليس عندى مبرر للتغيب ... وقد عجزت عن تلفيق عذر آخر

ـ أهذا يعنى اذن نهاية كل شيء ؟

ـ لابد لى أن أذهب الان ...

ـ وأطرق لوران مفكرا .. وكان تفكيره منصبا على كاميلوس . وأخيرا قال من غير أن يذكر اسمه صراحة ...

ـ ليس عندى ضده شيء .. ولكنه فى الواقع يعوق سبيلنا بصورة لا تطاق .. أفلا تستطيعين أنت أن تخلصينا منه ، فترسلينه مثلا فى رحلة الى مكان ما بعيدا عن هنا ؟

فأجابته المرأة الشابة قائلة وهى تهز رأسها :

ـ أرسله فى رحلة ؟ وهل تعتقد أن رجلا بهذا الشكل يمكن أن يقدم على الاسفار ؟ .. ان هناك رحلة واحدة فقط لا يؤوب منها مسافر .. ولكنه سيدفننا جميعا ، لان هؤلاء الناس الذين لا يربطهم بالحياة الا خيط واحد لا يموتون أبدا

وساد الصمت ، وزحف لوران على ركبتيه ، فالتصق بعشيقته ووضع رأسه فوق صدرها ، وقال لها :

ـ لقد رأيت حلما .. حلما جميلا .. كنت أحلم هذا الحلم دائما ..

ـ أى حلم ؟

ـ أن أقضى معك ليلة كاملة .. فأنام بين ذراعيك وتوقظنى فى الصباح قبلاتك .. اريد أن اشعر اننى زوجك .. اننى سأكون يوما زوجك .. أتفهمين ما أعنيه ؟

فأجابته تيريزا وهى ترتعد :

ـ نعم .. نعم .. أفهم ما تعنى !

وحنت عليه فجأة وراحت تقبل وجهه وتغطيه بلثماتها .. وتمسح خدها من تحت قبعتها بلحيته الخشنة . ونسيت تمام النسيان أنها قد ارتدت كامل ثيابها وهى توشك بهذا المسلك ان تكسر استواءها .. واخذت تنتحب وتغمغم بكلمات غامضة وسط عبراتها وتناشده قائلة :

ـ لا تقل شيئا كهذا .. والا لما وجدت فى نفسى قوة على تركك، فأبقى هنا .. اجتهد أن تمنحنى القوة والشجاعة . قل لى أننا سنتقابل مرارا أخرى .. أليس صحيحا انك بحاجة الى ، واننا يوما

ما سنجد الوسيلة التى تتيح لنا أن نعيش معا ؟

فأجابها لوران ويداه ترتجفان فوق معطفها :

ـ عودى اذن .. عودى اذن غدا .. قولى أنك عائدة ..

ـ ولكنى لا أستطيع أن أعود .. قلت لك من قبل أننى لم أجد لى فى ذلك عذرا ولا شبه عذر .. كلا ! لست خائفة من الفضيحة . فان كنت تريدنى أن آتى حقا سأقول لكاميلوس عندما أصل الى البيت أنك عشيقى واننى عائدة اليك لانام هنا .. ولكن خوفى عليك أنت ! فأنا لا أريد أن أدخل الاضطراب على حياتك ، بل أريد أن أتيح لك حياة سعيدة

وعندئذ تنبهت فى الشاب فطرته الحذرة ، فقال :

ـ معك حق .. فما ينبغى لنا أن نسلك سلوك الاطفال . وان كان لابد لزوجك أن يتنحى عن طريقنا .. ولو حدث أنه مات ..

وتوقف عن الكلام .. فكررت تيريزا عبارته ببطء :

ـ ان حدث أن زوجى مات .. ؟!

ـ عندئذ نستطيع أن نتزوج .. فلن يكون أمامنا ما نخشاه .. ويتسنى لنا ان نتذوق حلاوة حبنا كاملة .. ويالها عندئذ من حياة عذبة طيبة !

وانتصبت الشابة فى جلستها ، وشحب خداها ، ونظرت الى عشيقها بوجوم ، ثم اختلجت شفتاها وقالت اخيرا :

ـ يحدث أحيانا لبعض الناس أن يموتوا .. ولكن الخطر يبقى معلقا فوق رءوس من يعيشون بعدهم !

وصمت لوران فلم يجب .. فاستطردت تيريزا تقول :

ـ هانتذا ترى .. ان كل وسيلة من الوسائل المعروفة غير مضمونة العواقب ..

فقال بهدوء شديد :

ـ لقد اسأت فهمى .. فأنا لست مغفلا ، بل اريد ان احبك واستمتع بهذا الحب فى أمان واطمئنان .. وما كنت أفكر فيه ، هو أن الحوادث تقع للناس كل يوم ، كأن تزل أقدامهم ، أو تقع على رءوسهم قطعة حجارة من سور سطح بناء .. أشياء من قبيل القضاء والقدر . وفى هذه الحالة لا يقع الذنب على أحد !

وكان صوته غريبا .. وابتسم واستطرد بصوت ناعم مهدهد :

ـ لا تقلقى .. أمامنا متسع من الفرص كى ننعم بحبنا ونعيش سعداء .. فان لم نتقابل ولو بضعة أشهر ، لاتنسينى.. وتذكرى أننى أعمل لتحقيق سعادتنا ..

وكانت تيريزا قد فتحت الباب لتنصرف .. فضمها بين ذراعيه قائلا :

ـ هل أنت لى حقيقة ؟ أتقسمين على أنك ستمنحينني دائما نفسك .. بأجمعها ، فى أى وقت وبلا تردد .. كلما أردت ذلك ؟

فصرخت المرأة قائلة :

ـ نعم ! أنا لك .. أنا ملك يمينك .. افعل بى ماتريد

وبقيا هناك برهة سادها صمت متوتر .. وفجأة انتزعت تيريزا نفسها منه وانطلقت تهبط السلم من غير أن تنظر خلفها . وظل لوران فى مكانه كالمشدوه يصغى لوقع خطواتها المبتعدة ..

ولما انقطع اخر صدى لخطواتها عاد الى فراشه ، وكانت أغطيته لم تزل حارة وهواء الحجرة الصغيرة يكاد يخنقه بما حشدته فيه تيريزا من حرارة عواطفها الساخنة .. فكأن رئتيه تتنفسان بضعة من تلك المرأة الشابة بأريجها الذى تختلط فيه عطور البنفسج الحادة برائحة اردانها المسكرة لحواسه.. فيخيل اليه انها حاضرة بين يديه، حتى اذا جمع يديه لم تجتمعا الا على شبح غير محسوس ورؤى غير ملموسة ، تفلت من ضمته الطائشة لتتراقص وتحوم من حوله ، وتفور الدماء متأججة بلواعج الحرمان فى عروقه . ولم يمد يده ليغلق النافذة من فوقه ، وظل مستلقيا على ظهره بين الوسائد والحشايا ، مستروحا ما يهبط اليه من الانسام ، متفكرا وكأنه مطرق الى أعلى ، يحملق فى السماء الزرقاء الداكنة التى تبدو رقعتها من كوة سقف الحجرة

والى الصباح ظلت فكرة واحدة تجول برأسه .. وقبل قدوم تيريزا لزيارته فى هذا الحشد الطاغى من الفتنة ، لم يكن فكر بوضوح فى اغتيال كاميلوس . وانما كان حديثه عن موته نتيجة انسياق مع الاحداث، مدفوعا بتلك الفكرة المفزعة : فكرة عدم اجتماعه بعشيقته مرة أخرى . وهكذا برزت من بين طوايا اللاشعور ناحية جديدة من

طبيعته الخفية . وتحت سلطان الشهوة كشف له القتل عن وجهه خبيثا فاجرا متحديا ..

والآن ، وقد صار وحيدا فى هدأة من الليل ، هاهو ذا يفكر بأناة وامعان فى تدبير ذلك القتل . واذا الفكرة التى أطلت برأسها وقد استخرجها الغرام اليائس من مكامنها ما بين ضمتين ولثمتين يهددهما الحرمان الابدى، هاهى ذى تنبسط امام ناظره هيكلا كاملا يطالبه بالتفاصيل التى تجعل منه كائنا كاملا . فراح لوران يتنقل بذهنه بين أنواع من المكائد والفخاخ . ويوازن بين الاحتمالات والظروف ، ولا يريد أن يترك ثغرة لسوء الطالع .. ويضع نصب عينيه طول الوقت ما سوف يجنيه بهذا القتل من مغانم ..

ان مصالحه كلها تغريه بذلك الاغتيال ، فوالده لا يبدو عليه أنه ينوى الموت فى أمد قريب . ومعنى هذا أنه يجب أن يبقى موظفا كادحا بليد العيش عشر سنوات أخرى على الاقل محروما من الطعام الدسم والعيش الرغد ونعومة الحياة مع امرأة تخصه بحنانها ودفء عواطفها ..

وكان التفكير فى ذلك يثير غيظه ويدفعه الى وضع حد لهذا الشقاء بأى ثمن .. وموت كاميلوس كفيل بذلك كله ، لانه سيتزوج تيريزا ويرث ثروة مدام راكان فيتقاعد ويقضى ايامه مسترخيا فى الشمس. وكانت تلك الحياة التى تقضى فى الكسل هى المثل الاعلى فى نظره .. فهو لا يريد من الدنيا الا ان يأكل وينام ويحتسى النبيذ ولايقوم بأى عمل ، وينتظر بصبر وبلا لهفة وفاة أبيه . ويملؤه هذا الحلم بالسعادة .. ثم يتذكر ان كاميلوس وحده هو الذى يقف حائلا دون هذا الفردوس ، فيضم قبضتيه كأنه يريد أن يصرعه ..

وهو يريد تيريزا .. يريدها بأجمعها لنفسه .. يريدها رهن اشارته على الدوام . وان لم يتخلص من الزوج ، فلن تصل يده الى الزوجة .. وهى نفسها قالت له ذلك .. قالت أنها لن تستطيع العودة اليه . وهو شخصيا كان يرحب بالهروب معها الى اى مكان ..ولكنهما فى هذه الحالة سيتضوران جوعا معا . وأهون من هذا عليه أن يقتل زوجها فلا تحدث فضيحة . فكل ما هناك أنه أزاح رجلا من طريقه وحل فى موضعه ..

وبدا له هذا المنطق الريفى الغليظ ممتازا باهرا وطبيعيا .. ورغم ايثاره للحذر ، مال بكل نفسه الى تنفيذ هذا المشروع ..

وجعل يتقلب على الفراش وهو يتفصد عرقا .. وينام أحيانا على بطنه ويدفن وجهه المبتل فى الوسادة التى كانت منذ ساعات تنام فوقها جدائل شعر تيريزا فتشرب نسيج كتانها من عطرها . ويزيد ذلك من لهاثه، ويلح على نفسه فى العثور على وسيلة يقتل بها كاميلوس من غير خطر .. وكأن الوفاة جاءت بالقضاء والقدر ، وبعد أن يعييه التفكير والتدبير ينقلب على ظهره ويفتح عينيه ، ويحملق فى هوة السماء المقلوبة من خلال كوة السقف ، وكأنه ينقب بين وميض النجوم عن طريقة مأمونة للاغتيال .. ولكن مامن طريقة مأمونة عثر عليها ..

لقد قال لعشيقته أنه ليس طفلا غرا .. فلن يستخدم الخناجر والسموم . وما يرمى اليه هو الاغتيال بغير مخاطرة ، وبغير صراخ وفزع ، يريد نوعا من الاختفاء السحرى الذى لا سبيل اليه ..

ورويدا رويدا غلبه النوم على أمره .. واستطاع هواء الفجر البارد أن يطرد البقية الباقية من طيف تيريزا العطرى من الحجرة ، ثم استغرقه الكرى فنام نوما عميقا .. وكان آخر ما خطر بذهنه أنه سينتظر فرصة مواتية . وهكذا هدهدته خواطره على نغمة واحدة متواترة :

ـ سأقتله ! سأقتله ! سأقتله ! ..

أما تيريزا فوصلت الى البيت فى الساعة الحادية عشرة ودماؤها تكاد تنفجر ، ولا تدرى كيف ابصرت الطريق. ووجدت مدام راكان وكاميلوس قلقين عليها .. وباقتضاب ونفاد صبر أخبرتهما أن رحلتها كانت عقيمة . لانها لم تجد العميلة المدينة ، وانتظرت العربة الحافلة ساعة عند عودتها. وآوت الى فراشها بين اغطية باردة رطبة وظلت معظم الليل أرقة وغطيط كاميلوس بجانبها لا ينقطع . وكم من مرة قاومت نفسها حتى لا تحطم سحنته بقبضة يدها الناقمة ..

الفصل العاشر

حديث

ومرت بعد ذلك ثلاثة أسابيع على وجه التقريب ، كان لوران فى اثنائها يقضى كل أمسية من الامسيات متململا فى المتجر ، يبدو عليه الاعياء ، وكأنه يعانى من داء مخامر ، فحول عينيه حلقات حمراء ملتهبة ، وشفتاه يعتريهما شحوب اضفى عليهما حدة لم تكن معهودة فيهما من قبل .. بيد انه ظل محتفظا برزانته وبطء حركاته ، ينظر الى كاميلوس بثبات ، ويواجه عينيه بلا اضطراب ، ويظهر له نفس ما كان يظهره له من الصداقة والمودة ..

وكانت مدام راكان تمعن أفى تدليل صديق الاسرة ، لما أنسته لديه من توعك يوحى ببوادر حمى خفيفة ...

واما تيريزا فاستردت فوق وجهها ذلك القناع الواجم الشارد ، فهى أقل من ذى قبل حركة ، واشد غموضا ، واهدأ اسارير .. فكأنما لوران الحاضر فى المتجر لا وجود له بالنسبة اليها ، فهى لا تكاد تعيره التفاتا ، ولا تتحدث اليه الا نذرا ، وتعامله بعدم مبالاة .. حتى ان الطيبة العجوز « مدام راكان » تأذى حنانها بهذه القسوة من بنت اخيها نحو الشاب الغريب الدار الوحيد ، فكانت تهون عليه الامر قائلة له :

ـ لا تقم وزنا لبرود بنت اخى نحوك ، بل سلنى انا عنها ، فأنا التى اعرف حقيقة طبعها .. ان وجهها يبدو فاترا ، بل باردا، ولكن قلبها دافىء عامر بكل صنوف الحنان والرقة والعطف !

ولم يقع لقاء بين العاشقين .. فمنذ زارته فى الحجرة التى يسكنها فى شارع القديس فيكتور لم تتح لهما خلوة . وفى كل مساء، حين يجلس كل منهما فى مواجهة الآخر ، يبدون كالغريبين . ومن

تحت مظهر سحنتيهما الهادىء تيارات واعاصير وبراكين من العواطف المتأججة توشك ان ترمى بالشرر ، بل بالحمم ..

وكانت تيريزا تشعر احيانا بلحظات من الغضب والتمرد تعتلج فى صدرها ، وتكاد تأخذ عليها انفاسها اخذا .. وفى احيان اخرى تشعر بالخوف والجبن . اما لوران فكان فى نفسه رصيد ضخم يمده بالعنف والقسوة والوحشية ، ولكنه كان يمر بلحظات من الحيرة والتردد الموجع ..

انهما لم يكونا ليجسرا على النظر فى اعماق كيانهما .. فى اعماق تلك الحمى المضطرمة التى تملأ عقليهما بالابخرة المتكاثفة ذات المذاق اللاذع والرائحة الخانقة ..

وعندما كانت تسنح لهما الفرصة الخاطفة ، كأن ينفردا وراء مصراع باب طرفة عين ، كانت يداهما تتشابكان فى جنون مشبوب يكاد يحطم تحت وطأته الطاغية عظام اصابعهما وهما لايدريان !.. ففى عناق اليدين ذلك العناق الصامت الجارف ، كأن لدى كل يد ثأرا تطلبه عند اليد الاخرى ، ايجاز مقتضب لعناق جسديهما الملتاعين من عذاب الحرمان !.. ولو تركا العنان لنفسيهما ، او طال التشابك لحظة اخرى ، لحطم كل منهما عظم الآخر ومزق لحمه !. فليس أمامهما الآن للتنفيس عن رغائبهما سوى هذا التشابك الخاطف ، ولا يجرؤ احدهما أن يطلب الى الآخر اكثر من ذلك فى هذا الاوان .. فهما ينتظران ويتربصان ..

وذات مساء من امسيات الخميس ، جلس ضيوف آل راكان وقد اكتمل عقدهم ، يتجاذبون اطراف الحديث كالمعتاد قبل ان تبدأ لعبة الدومينو. ومن اهم الموضوعات التى يطرقونها فى احاديثهم ذكريات ميشو عن الحوادث الجنائية البارزة فى مدة خدمته الطويلة، والتى عرفها بحكم عمله معرفة صميمة تحيط بالاسرار والخبايا.!

وكان الجميع يصغون لما يتدفق من فم ميشو باهتمام يقارب الانبهار ، لان حياة الخاملين من الناس تبحث دائما عن منفذ تتحرر به من خمولها ، فتتطلع الى الشاذ المضطرب المائج من سير الجريمة، أو الخيانة !.. فما كان اشبه وجوههم عندئذ بوجوه اطفال يصغون لاحاديث الجان او القرصان ، فى فزع مستطاب !

وفى ذلك المساء روى لهم « ميشو » تفاصيل جريمة قتل فظيعة، ارتعدت لها فرائص سامعيه .. وفى ختام السرد هز رأسه قائلا:

ـ وما كل شىء يحدث فى عالم الجريمة يتكشف لذهن المحقق.. فكم من جريمة بقيت خافية لم يمط عنها اللثام ! وكم من مجرم يعيش بين الناس طليقا لا تدركه يد العقاب فى هذه الدنيا ..!

فصاح « جريفيه » متعجبا :

ـ ماذا تقول ؟ اتظن حقا ان فى شوارعنا الآمنة مجرمين، ايديهم ملطخة بالدماء ، ولم يتم القبض عليهم ؟..

فابتسم اوليفييه بازدراء ، وقال بصوته الاجش :

ـ بل ولن يقبض عليهم اكبر الظن .. فاذا كانوا طليقى السراح الآن يا سيدى العزيز ، فذلك لان احدا لا يعلم أنهم ارتكبوا جرما ...

ويبدو ان هذا المنطق لم يقنع جريفيه .. فأسرع كاميلوس الى مناصرته :

ـ انا شخصيا على راى مسيو جريفيه .. أوثر الاعتقاد فى كفاية رجال الشرطة ، وان المجرمين الخطرين لا مكان لهم بين ظهرانينا..

واحس اوليفييه بشىء من الغمز الشخصى لرجال الشرطة فقال:

ـ لا شك طبعا فى ان رجال شرطتنا اكفاء .. واكفاء جدا . ولكننا بشر على كل حال ، وليس فى وسعنا ان نحقق المستحيل .. وهناك عباقرة فى الاجرام كأن الشيطان نفسه قد تولى تدريبهم والهامهم .. لذا فهم ينجون بما اقترفوا ، ولا تعلق بأذيالهم ريبة .. ولا تتجه اليهم شبهة . اليس كذلك يا أبى ؟

فقال ميشو العجوز على الفور لابنه :

ـ طبعا طبعا .. فمثلا عندما كنت فى « فيرنون » ـ ولا شك انك تذكرين تلك الحادثة يا مدام راكان ـ عثروا على جثة سائق عربة نقل فى خندق ، وقد قطعت اوصاله اربا .. ولم تفلح محاولاتنا اليائسة فى الوقوف على أثر المجرم الاثيم . ولعل هذا القاتل لم يزل على قيد الحياة ، بل ولعله يعيش فى مكان قريب من هنا . وليس من المستحيل ان المسيو جريفيه سيلقاه فى طريقه الليلة الى داره !

فاكفهر وجه جريفيه ، حتى حاكى لون الثلج من شدة الخوف، ولم يجسر على الالتفات برأسه ، خشية ان يكون ذلك القاتل المزعوم واقفا وراء ظهره فتقع عليه عيناه ! وهتف مغمغما :

— كلا ! كلا !.. انى ارفض أن اصدق هذا الكلام ... وانا فى الوقت نفسه اعرف قصة اخرى .. قصة فتاة خادم زجت فى السجن لاقدامها على سرقة آنية فضيةمنقوشة منبيت مخدوميها، وبعد شهرين اتفق ان باع مخدومها بعض اشجار حديقتهما لتاجر خشب . وعند قطع احدى الدوحات الباسقة ، وجدت الآنية الفضية الضائعة فى عش حداة ! فالحداة كانت هى السارقة الحقيقية ٠٠ فاطلق سراح الفتاة البريئة ٠٠ فهأنتذا ترى أن الله بمهل ولا يهمل ، وأن المجرم لا بد ان يلقى قصاصه ..

وضحك أوليفييه ساخرا وقال :

— طبعا طبعا .. فلا بد أن الحداة سيقت الى السجن !

فقاطعه كاميلوس غاضبا لرئيسه ، وما اصابه من زراية :

— ليس هذا ما اراد ان يذهب اليه المسيو جريفيه طبعا .. هيا يا أمى ٠٠ احضرى الدومينو ...

وذهبت السيدة لتحضر ادوات اللعب ، فقال كاميلوس لميشو :

— اذن فهناك فى رايك يا سيدى قتلة طليقو السراح يسيرون بين ظهرانينا فى الشوارع ؟ اتعتقد حقا ان كفاية الشرطة محدودة ؟

فقال مفتش الشرطة المتقاعد :

— طبعا .. للاسف الشديد ..

فصاح جريفيه :

— هذا مثبط للعزائم .. وفيه افساد للروح المعنوية ..

وفى غضون هذه المناقشة ، ظلت تيريزا ولوران لائذين بالصمت ولم تداعب الابتسامة شفتيهما لسذاجة جريفيه وبلادة ذهنه .. فكل من العاشقين كان معتمدا بمرفقيه على المائدة ، وفى وجهه شيء من الشحوب .. والنظرة ثابتة فيها تحجر .. والاذنان مرهفتان لالتقاط كل حرف من حروف ذلكالموضوع المثير لكل مافى راسيهما من افكار خفية ، وما فى سريرتيهما من انفعالات نارية ..

ولكن الحذر لم يستطع ان يحول دون التقاء عينيهما لحظة واحدة ، فاذا بانسانيهما وكأنهما قطعتان منالفحم الداكن ، اللامع، المتقد .. ثم طفرت قطرات من العرق البارد الى جبين تيريزا وجذور شعرها . اما لوران ، فانتابت اوصاله رعدة جعلت كل خلية فى جلده تنكمش ..

الفصل الحادى عشر

نزهة ..

فى بعض الاحيان ، عندما يكون الجو جميلا فى ايام الآحاد ، يحمل « كاميلوس » زوجته تيريزا على الخروج معه للتنزه فى حدائق الشانزيليزيه . وكانت المراة الشابة حرية ان تفضل على ذلك الخروج ، بقاءها فى المتجر الرطب ، لانها سرعان ما تشعر بالسأم والضيق والتعب وهى متعلقة بذراع ذلك الرجل الخرع ، وهو يجرها حينا ، ويقف بها حينا آخر على افاريز الشوارع ، امام واجهات المتاجر الكبرى .. وهو يتعجب فى سذاجة بلهاء من كل ما تقع عليه عيناه .. وبعد هذه التعليقات السخيفة يقف ساكتا مبهورا فترة اخرى ، وهى تكاد تموت من الضجر .. ولكن كاميلوس كان يلح عليها فى ذلك الخروج معه ، لانه فخور بزوجته ، ويجب أن يعرض حيازته لها على أنظار الناس .. فاذا حدث انه التقى مصادفة بأحد زملائه ، او على الخصوص بأحد رؤسائه فى العمل ، كان يمتلىء زهوا وهو يتبادل معه التحية برفع القبعة ، وهو فى صحبة « المدام .. » . ثم انه فضلا عن هذا يحب المشى للمشى ، ولا يكاد يفتح فمه بحديث مسل عندما يكون داخل ثياب الاحد ، وكان جسده منشى مثل قميصه الابيض ذى الياقة العالية !

وفى الايام التى يخرجان فيها للتنزه ، كانت « مدام راكان » تصحب « ولديها العزيزين » الى نهاية ممر القنطرة الجديدة ... ثم تقبلهما كانهما ذاهبان فى مغامرة او سفر بعيد ، وتزودهما بكمية وافرة من النصح والارشاد ، وتوصيهما أن يلتفتا للطريق ، ويسيرا على الطوار ، ويحذرا المركبات والناس والهواء !..

ــ احذرا على الخصوص من الحوادث .. فما اكثر المركبات فى باريس ! وعدانى الا تتوغلا فى الزحام ..

وتتركهما اخيرا ، وهى تمطرهما بالدعوات ، وتتعقب آثارهما فى الشارع الكبير الى مسافة بعيدة ، وتعود ادراجها ، فساقاها قد ثقلتا ، ولم تعد لديها القدرة على السير الطويل ، والا لذهبت معهما ولما هان عليها ان تفارقهما ..

وفى مناسبات اخرى ، ليست بالكثيرة ، كان الزوجان يذهبان يوم الاحد للتنزه خارج العاصمة ، فى ضاحية من ضواحى الريف على مشارف باريس .. ويأكلان السمك المقلى اللذيذ فى مطعم من تلك المطاعم الصغيرة المتناثرة على ضفتى نهر السين ..

وهذه الرحلات النادرة كانت تعتبر احداثا بالغة الاهمية فى حياة الاسرة ، تستعد لها وتتحدث عن مشروعاتها قبل موعدها بشهر كامل ...

وكانت تيريزا اقرب الى الرضا والاقبال على هذه الرحلات الريفية ، حيث يتاح لها ان تنعم بالهواء الطلق الى الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلا . وكانت المناظر التى يجتمع فيها الماء بالروابى الخضر والحقول المترامية تذكرها بأيام طفولتها الخوالى فى «فيرنون» فيعاودها الحنين القديم الى السين وخرير امواجه ، وتجلس على الحصى الذى غسله الماء ، وتمد اصابعها فتغمرها فى التيار ، وتترك جسدها للاشعة اللاذعة تخترقه فى تلذذ غامض ..

واما كاميلوس ، فكان يبسط منديله النظيف بعناية فوق الحصى ، ثم يجلس بجوارها فى حرص شديد ..

وتعود الزوجان فى المدة الاخيرة أن يأتيا معهما بصديق العائلة .. لوران ، لانه كان يسليهما فى الطريق ، ويسرى عنهما بلباقته فى الحديث ، ونوادره ونكاته وضحكه وحيويته الريفية المتضرمة..

وذات يوم من ايام الاحد ، اتجه كاميلوس وتيريزا ولوران الى ضاحية « سان اوان » على ارباض باريس ، وكان خروجهم من ممر القنطرة الجديدة فى الساعة الحادية عشرة ضحى ، بعد تناول طعام الافطار المتاخر . وكان مشروع تلك الرحلة موضع بحث منذ زمن طويل .. لانها رحلة ختام ذلك الموسم ، فالخريف كان على الابواب ، والبرودة تشوب رياح الليل وندى الفجر بشكل واضح ..

وفى ذلك النهار كانت السماء لم تزل محتفظة بزرقتها الصافية

الاديم ، والحرارة شديدة فى الشمس ، اما الظل فلا يخلو من دفء .. فقرر الثلاثة ان يستفيدوا من هذه البقية الباقية من شمس الصيف .

واستقل الثلاثة مركبة عند راس الممر ، وتركوا « مدام راكان » العجوز غير مرتاحة لهذا الرحيل كعادتها . واخترقت بهم العربة باريس وغادروها عند التحصينات الخارجية ، ثم مشوا على اقدامهم صوب الضاحية ، على الطريق العام ، فوصلوا « سان اوان » فى وقت الظهر . وكانت تيريزا تسير فى المقدمة ، آخذة بذراع كاميلوس ، ولوران يتبعهما عن كثب ، والشمس الحارة تلذع قفاه العريض ، ولكنه يبدو مشغولا عن فعل الشمس بقفاه ، فهو يصفر ، ويركل الحصى والحصباء بحذائه ، ويرمق فى الحين بعد الحين قامة عشيقته من الخلف ، وهى تسير بمشيتها المتأرجحة ، وتومض عيناه بشرر نار متأججة توشك ان تندلع من تنور !

وما ان وصل الثلاثة الى الشاطىء الذى تقع عليه «سان اوان» حتى بادروا اولا بالبحث عن اجمة ملتفة من الاشجار الباسقة ذات الظل الظليل ، من تحتها خميلة من عشب ناضر ، تراوحها الانسام وتغاديها . وحدا بهم ذلك البحث الى عبور النهر ، فنزلوا جزيرة بها غابة صغيرة ، تكسو ارضها الاوراق الساقطة ببساط جميل وثير .. وهناك قرروا ان يستقروا ..

وتخير كاميلوس بقعة جافة جلس فوقها بحرص ، وهو يرفع فضل سرواله وفضل سترته . اما تيريزا فارتمت بلا حساب فوق الاوراق الجافة ، وبسطت ذراعيها كأنها تريد ان تحتضن جذوع الاشجار الحانية عليها ، وصفحة السماء المطلة من فوقها .. وأما لوران فانبطح على بطنه وراح ينظر خلسة الى قوام تيريزا وساقيها اللتين تكشفت عنهما الثياب

وقضوا فى تلك القيلولة الجميلة المسترخية زهاء ثلاث ساعات ، فى انتظار دخول بعض الوهن على اشعة الشمس حين تجنح للغروب ، كى يسيروا فى الحقول قليلا ، قبل تناول العشاء ..

وكان « كاميلوس » فى تلك الاثناء يتحدث عن شئون العمل فى المكتب ، ويروى قصصا سخيفة للغاية ، ثم ادركه التعب فرقد على

ظهره وراح فى النوم ، ووضع قبعته على وجهه لتلافى الضوء والذباب ، واغمضت تيريزا عينيها وتصنعت الاستغراق فى النوم وقتا طويلا .. وعندئذ زحف لوران على بطنه صوب الموضع الذى استلقت فيه المراة ، والصق فمه بلحم قدمها من فوق الحذاء ، ثم كاد يحرق عقبيها بحرارة شفتيه . وكاد يمزق الجورب الحريرى الابيض وجلد الحذاء بأسنانه الناصعة القوية كأسنان الحيوان المفترس .. وقد اثارت خياشيمه الرائحة المنبعثة من الارض الخصبة ، والاريج الفواح من العشب النامى ، والعطر الانثوى الذى يشع من جسد المراة التى طالما اسكرت جوارحه ، فغلت الدماء فى عروقه ، وشدت أعصابه شدا كاد يمزقها . وكان السير الطويل فى الشمس قد أزكى الجذوات الكامنة فى جسده الشهوانى . وهاهو ذا الان فى هذه الخلوة المتوارية عن الانظار ، فى ظل وارف وسكينة مأنوسة ، ومعشوقته فى متناول يده ، بعد حرمان من وصالها المشتهى دام شهرا واكثر من شيهر ، ولا يستطيع ان يضمها بين احضانه المحمومة ضمة تشفى الاوار وتنقع الصدى ! لانه يخشى ان يتنبه زوجها فجأة من نعاسه فيراه ويحبط ما دبر من مسعاه ، ويتخذ حذره ويأخذ عليه منافذ السبل الى غايته المرجوة ..

ان هذا الرجل عقبة كأداء فى طريق آماله .. وها هو ذا كالكلب الذليل ــ وهو منبطح على بطنه وفمه مدفون فى اثواب تيريزا كأنه الكلب تماما ــ يقنع بلثم حذائها وجوربها فى صمت ، وهى جامدة فى موضعها ، متصلبة فى ضجعتها ، حتى لقد خالها لوران نائمة حقا ..

وثقلت الوطأة على العشيق المحروم ، فنهض قائما ، ثم وقف واسند ظهره متململا الى جذع شجرة قريبة ، وعندئذ فطن الى ان عينى تيريزا مفتوحتان ، تحملق بهما فى صفحة السماء التى تتراءى لها من بين غصون الشجر .. وهما تلمعان لمعانا شديدا يدل على فداحة ما تعانيه .. ووجهها مكفهر غاية الاكفهرار ، متصلب الاسارير ..

لقد كانت تيريزا تفكر ، وكأن عينيها الشاخصتين هوتان لايرى الناظر فى اعماقهما شيئا سوى الظلمة الحالكة .. ولم تحرك

انسانيهما صوب لوران الذى وقف من خلف راسها ينظر اليها ، وقد ازعجه انهـا كانت جامدة كالحجر الصـوان تحت لمسـاته المحرقة ، ثم اسلمه ذلك الازعاج الى طوفان من الرغبة المجنونة كاد يجرفه فينقض على هذا الوجه الشـاحب الجامد الاسـارير ويقفل هاتين العينين بفيضان من قبلاته .. ولكنه تماسك وقد تذكر زوجها النائم بجوارها ، يكاد يلتصق ثوبه بثوبها ، وغطيطـه يرفع صدره الضيق الضعيف ويهبط به فى انتظام ، وقد القى رأسـه الى الوراء كاشفا عن عنق هزيل .. فبدا منظره فى جملته باعثـا على الاشمئزاز والزراية

وفجأة تقلص ساق لوران ، ورفع قدمه عن الارض ، وهم أن يحطم وجه كاميلوس بضربة واحدة ، وحبست تيريزا صرخة كادت تنطلق من حلقها ، وشحب وجهها وأغمضت عينيها ، واشاحت برأسها ، كأنها تتحاشى أن يصيبها رشاش من دم زوجها المتناثر !

وظل لوران بضع لحظات ، وقدمه فوق وجه كاميلوس النـائم ثم رد قدمه ببطء شديد الى موضعها من الارض ، وابتعد عن المكـان بضع خطوات . وقد أقنع نفسه أن هذه الوسيلة من الاغتيال لايمكن أن يقدم عليها سوى أحمق .. لان هذه الجمجمة المهشمة جديرة ان ترسل فى اثره كل قوى الشرطة . وهو لايريد التخلص من كاميلوس لمجرد القضاء على حياته ، بل ليتسنى له الزواج من تـيريزا . وفى مراده أن يعيش فى وضح النهار بعد ارتكاب جريمته بلا رهبة ، على غرار قاتل قائد عربة النقل الذى روى قصته العجوز « ميشو »

ومشى الى ضفة النهر ، ووقف يرقب جريان الماء وكأنه مذهول .. وفجأة عاد الى الغابة ، وقد استقر رأيه على خطة معينة ، واختار طريقة سهلة للاغتيال لا تعرضه لاى خطر . .

وبهدوء تام ايقظ النائم : داعب انفـه بعود جـاف ، فعطس كاميلوس ، ونهض وهو يضحك ملء شدقيه من هذا المزاح الرقيق ! .. وكان يحب لوران اشد الحب لبراعته فى المزاح . ثم هز زوجته وقد ظنها نائمة لانها مغمضة العينين ، فنهضت ونفضت القش والورق الجاف عن اذيالها ، وسار الثلاثة الهوينا بين اشجار الغابة ، يذودون الغصون عن وجوههم بأيديهم ...

وغادروا الجزيرة الى الضفة الاخرى ، وتمشوا بين جماعات من المتنزهين الصاخبين جاءوا مثلهم من باريس لقضاء سحابة النهار ، وقد ارتدوا احسن ثيابهم . وكانت بينهم فتيات من نسـاء الحى اللاتينى كن يغنين اغنيات شائعة مرحة ، وهن يتواثبن . والنوتيون يجدفون فى الزوارق الخفاف وينشدون اغنيات الملاحين ذات الطابع المرح .. وكانت الشمس قد مالت عن كبد السماء وجنحت للغروب ، وبدأ الهواء يحمل فى اذياله شيئا من البرودة والرطوبة

وكان كاميلوس يسير غير متعلق بذراع تيريزا ، لانشغاله بالحديث مع لوران .. لوران يروى له النكات وهو يضحك حتى يغرب ، أو يقفز لوران فوق الحواجز والاسوار فى حركات بهلوانيـة تنم عن قوته البدنية المفرطة ، فيصفق كاميلوس اعجابا ..

وتيريزا تسير مطأطئة الرأس . وربما انحنت فقطفت عودا من أعواد العشب الاخضر فهصرتها بين أناملها ، وهى تختلس النظر الى زوجها وعشيقها .. واخيرا صاح بها كاميلوس :

ـ ويحك ! ألست جائعة ؟ !

ـ بلى ! ..

ـ اذن هيا بنا ندبر أمر الطعام ..

ولم تكن تيريزا فى الحقيقة جائعة .. بل قلقة متوجسة مما يدور فى رأس لوران ، وهو يتظاهر بخلو البال على هذا النحو

واتجه الثلاثة الى الشاطىء لينشدوا مطعما يتناولون فيه عشاءهم المرموق من السمك المقلى الساخن ..

الفصل الثاني عشر

الخطة ..

وفى مطعم من تلك المطاعم الرخيصة التى تفوح منها روائح الشحم والنبيذ ، وجدوا مائدة على شرفة مصنوعة من الخشب العتيق مطلة على مياه النهر . وكان الجو مشحونا بصيحات الرواد وضحكاتهم المدوية ، وغنائهم ، وصليل الاطباق والاكواب . ولا يغنى فى حبس تلك الضجة فواصل رقيقة من الخشب العتيق تقسم الشرفة الى « خانات » صغيرة مثل بيوت الحمام .. بل كانت هذه الفواصل معوانا على تضخيم الاصوات بما تضيفه اليها من الصدى والرنين. وكان الخدم والسقاة يهزون السلالم الخشبية هزا ، وهم يصعدون ويهبطون حاملين المشروبات والصحاف الى الزبائن الصاخبين ...

وكان الهواء المتصاعد من النهر الى مستوى الشرفة الخشبية ، يجرف معه رائحة الدهن والشواء المتراكمة ، فيخفف من ثقل الانفاس ... ووقفت تيريزا واطلت من فوق السياج الخشبى على مجرى النهر ، حيث تغدو القوارب وتروح ، وزواط المتنزهين والنوتية فيها لا ينقطع ، وسواد معاطف الرجال يباين بريق الوان اكسية الفتيات والنساء ، ويزيده وضوحا فى مراى العين ...

واتجه لوران الى موضع آخر من السياج ، عند راس السلم ، وصاح بالساقى فى الطابق الاسفل :

ــ ما المسألة يا ساقى ؟ الا تنوى ان تقدم لنا عشاء هذا المساء ؟

ثم سكت فجأة ، وتحول الى كاميلوس قائلا :

ــ قل لى ما رايك يا كاميلوس .. الا نذهب الآن فنركب زورقا نجدف فيه ساعة من الزمن قبل ان نجلس الى المائدة ؟.. هذه

المهلة ستتيح لهم فسحة من الوقت يشوون لنا فيها دجاجة صغيرة .. فسوف يضجرنا الانتظار الممل ساعة على الاقل ريثما يعدون الدجاجة ...

فقال كاميلوس بغير مبالاة :

ــ كما تشاء ... ولكن تيريزا فيما اعتقد جائعة ..

واسرعت المراة تقول بلهفة ، وقد شعرت بوطأة نظرات لوران فوقها :

ــ كلا .. كلا .. بل أستطيع الانتظار ...

وهبط ثلاثتهم الدرج الخشبى ، وعند مرورهم بادارة المطعم فى « البار » حجزوا مائدة على النهر ، واوصوا بشى دجاجة وبسمك مقلى ساخن ونبيذ ، وقالوا انهم عائدون فى مدى ساعة من الزمن..

ولما كانت ادارة المطعم تؤجر ايضا قوارب للتجديف ، فقد طلب لوران من المدير ان يحل لهم قاربا ، واختار لوران زورقا ضيقا جدا وخفيفا للغاية ، حتى ان كاميلوس فزع وقال :

ــ لابد وايم الشيطان أن نجلس متلاصقين فى هذا الزورق ، والا انتهى بنا الامر الى حمام اجبارى ..!

والحقيقة ان « كاميلوس » كان يخاف الماء .. بل يمتلىء منه رعبا ، اذ انه حين كان صبيا فى « فيرنون » ، لم تسمح له ظروفه الصحية بالسباحة فى السين مثل اترابه من الصغار الذين كانوا يغوصون تحت سطح الماء ، ويعبرون النهر من ضفة الى ضفة ، ثم يعودون بغير عناء .. فكل ما يعرفه من السباحة فى ذلك الوقت هو « العوم » فى عرقه بين الاغطية الصوفية الثقيلة !..

اما لوران فشب سباحا ماهرا جسورا ، وله على التجديف قدرة لا تعرف الكلل .. وظل كاميلوس فى رجولته كالطفل الرضيع رهبة للماء ، وعجزا امام تياره .. ولذا اخذ يتحسس الزورق بيديه ، كأنه يريد أن يستوثق من متانة اخشابه وصلابة بنيانه...

فناداه لوران تهكما ، وهو يضحك ملء شدقيه :

ــ هيا يارجل .. اركب ! هل انت هكذا خائف على الدوام ؟ !

وبعد ان جس كاميلوس « السقالة » بقدمه اكثر من مرة ، مشى يتأرجح فوقها الى الزورق ، وجلس على المقعد القائم وراء

الدفة ، ولما استقر واطمأن الى سلامة مجلسه ، راح يضحك اظهارا لعدم خوفه !

وكانت تيريزا قد بقيت على البر ، متفكرة ساكنة الاسارير ، وهى واقفة بجوار عشيقها الذى امسك فى يده بحبل المرساة .. وانحنى كأنه يعالج حله من المرسى ، وقال ، همسا :

— افتحى عينيك جيدا ... سألقى به الى الماء ... افعلى ما أقوله لك ... واتركى لى كل شىء ...

واكفهر وجه المرأة اكفهرارا شديدا .. وبقيت فى موضعها وكأنها سمرت الى الارض تسميرا ، واتسعت حدقتاها من شدة الارتياع .. فهمس لها لوران بلهجة قاطعة :

— اركبى ! هيا اركبى !..

ولم تتحرك .. ففى اغوار نفسها كانت تدور معركة هائلة .. وراحت تشدد عزيمتها بأقصى ما تستطيع ، وتقسى قلبها ، لانها خشيت ان تنفجر باكية أو تخر على الارض مغشيا عليها ...

وقهقه كاميلوس حين رأى شحوبها وجمودها فى مكانها وصاح :

— ها ها ! انظر يا لوران الى تيريزا ... انها هى الخائفة لا انا ..! اتراها لا تنوى الركوب ؟..

وبسط رجليه وذراعيه وهو جالس فى الزورق ، اظهارا لعدم مبالاته وشجاعته ! فرشقته تيريزا بنظرة غريبة للغاية ... وكأنما كانت ضحكاته الساخرة هى العامل المرجح الذى دفعها اخيرا الى اصدار قرار اعدامه ، فقفزت الى الزورق فجأة بكل خفة ، وجلست فى المقدمة فى الجهة المقابلة لمقعد زوجها عند الدفة ، وتناول لوران المجدافين ، وغادر الزورق الشاطىء ، متجها فى بطء شديد نحو الجزر الصغيرة التى تعترض مجرى النهر الواسع ...

وكان الوقت اصيلا ، وقد كاد قرص الشمس يختفى وراء الافق ... وظلال الاشجار الكبيرة على الشاطئين تبدو سوداء قاتمة ، ومن بينهما يبدو الماء كأنه سبيكة من الفضة اللامعة تنعكس عليها اشعة الشمس ... وسرعان ما توسط الزورق مجرى النهر ..

وفى وسط التيار ، كانت الضجة التى تعلو من المتنزهين على البرين لا تكاد تصل الى مسامعهم الا لغطا خفيفا جدا .. تختلط

فيه بقايا الانغام والمزامير والاهازيج المرحة فى خفوت يثير الشجن ..

اما الروائح الثقيلة : روائح الشواء والدهن والغبار الثائر من وقع الاقدام ، فقد تخلص منها الهواء وسط مجرى السين وصار منعشا نقيا اقرب الى البرودة ...

وترك لوران التجديف ، وأرخى للزورق الضيق العنان لينساب مع التيار المطلق فوق صفحة النهر ...

ومن امامهم كانت مجموعة من الجزر الحمراء .. واما الشاطئان فكأنهما شريطان من الخضرة يمتدان ليلتقيا عند خط الافق ، وقد بدت صفحة السماء وصفحة الماء وكأنهما صيغتا من معدن واحد باهت اللون ... وما من منظر أبعث على الاسى فى النفس الشاعرة من منظر المساء وهو يهبط على ريف ساكن فى أيام الخريف ، ومع كل هبة من هبات النسيم تتساقط أوراق جافة كثيرة احرقتها الشمس الحارة فى فترة النهار ... وأعواد النبات ترتجف اشفاقا من الرياح الباردة التى تدق الطبول لطلائع الشتاء ... وقد سمعت خطواته الثقيلة من بعد بعيد ، فكأن ظلال الليل المخيم اكفان سوداء تلف فى طواياها شيخوخة العام ..

ولبث الثلاثة صامتين امام هذا المنظر الرهيب ... وراحت عيونهم تتبع آخر ذيول الاشعة وهى تفارق ذؤابات الاشجار ، والزورق يقترب بهم من الجزر وقد ازداد لونها حلكة ... وكان كاميلوس قد انبطح فى النهاية على بطنه ، ودلى راسه من فوق حاجز الزورق ليطل على الماء ، وغمر كفيه فى الموج ، وصاح بصوت يجمع بين الخوف والتلذذ :

— ما أشد برودة الماء ... انى وربى لاتمنى ان اغمر رأسى فى مثل هذا ...

ولم يجبه لوران بكلمة ... لانه كان فى اللحظات الاخيرة منصرفا الى فحص الشاطئين وتقدير المسافة التى يبعدها الزورق عن كل شاطىء منهما بعينيه فى قلق . وقد جعل يمر براحتيه الكبيرتين على فخديه جيئة وذهابا ، ويعض شفتيه .. وأما تيريزا فقد القت براسها الى الوراء قليلا ، وجمدت فى مكانها متخشبة ...

ودخل الزورق فرعا من فروع السين بين جزيرتين صغيرتين ،

ومن وراء احدى الجزيرتين سمعوا غناء نوتية فى مركب من تلك المراكب التى تمخر نهر السين حاملة البضائع .. اما صفحة الماء من الامام والخلف ، فكانت خالية تماما ...

وعندئذ هب لوران واقفا ، وقبض على كاميلوس من خاصرته ، فانفجر كاميلوس ضاحكا وهو يحسبها دعابة من دعابات صديقه العزيز المهزار وقال :

ـ كفى .. كفى ..! انك تدغدغنى !.. كفى هذرا ومزاحا !. كفى والا اوقعتنى فى التيار يا لوران ...

وشدد لوران قبضته عليه ثم دفعه دفعة قوية ، فاستدار كاميلوس نحو صديقه وراى وجهه البشع المتشنج .. ولم يستطع ان يفهم المغزى الحقيقى لتلك السحنة ، ولكنه امتلأ رعبا غامضا لا سند له من المنطق ، وهم ان يصرخ ، ولكن يدا غليظة كالحديد اطبقت على عنقه ، وبغريزة الحيوان الاعجم حين يدافع عن حياته ، نهض على ركبتيه ، وتشبث بجوانب الزورق ، وظل يكافح وهو على هذا الوضع بضع ثوان .. وصاح بصوت مخنوق لا يكاد يسمع :

ـ تيريزا ... تيريزا ..!

وكانت المراة ترقب ما يحدث ، وهى متشبثة بيديها كلتيهما بأحد مقاعد الزورق الذى راح يتراقص مترنحا فوق صفحة الماء ..

لم تستطع ان تقفل عينيها ، لان الرعب العصبى جعلها تحملق بهما وتتبع مسرح الصراع من أجلها وكأنها مسحورة ، وقد عقل الخوف لسانها ، وشل اوصالها ...

وصاح المسكين مرة اخرى وانفاسه تفح فحيحا :

ـ تيريزا ... تيريزا ..!

وعندئذ ... وقد سمعت هذه الاستغاثة الثانية ، انفجرت باكية ... وقد خانتها اعصابها ، والقت بها النوبة الهستيرية الى قاع الزورق ، وهناك بقيت مستلقية لا تبدى حراكا ، وهى فى شبه اغماء ...

وكان لوران فى هذا الوقت مستمرا فى خنق كاميلوس ، وبيده الاخرى استطاع انتزاع قبضتيه من جانبى الزورق ، ورفعه فى

الهواء كأنه طفل صغير ، وكان عنق لوران مكشوفا وهو يمد رأسه الى احد الجانبين ليبعد كاميلوس عن الزورق ، فانقض كاميلوس فى جنون الغضب على احد جانبى عنق لوران وانشب اسنانه فيه ، فصرخ لوران صرخة مكتومة والقى ضحيته الى الماء ... وفى فمه قطعة من بشرة قاتله !

وسقط كاميلوس فى الماء وهو يصرخ ... وغاص وطفا على وجه الماء مرتين ، اما لوران فرفع عشيقته الغائبة عن الرشد بين ذراعيه ، ثم دفع جانب الزورق بقدمه بقوة فانقلب فى النهر ، وظل لوران رافعا تيريزا فوق سطح الماء ، وهو يصرخ بأعلى صوته طالبا النجدة !

وسمع البحارة الذين يغنون وراء الجزيرة اليمنى فى زورقهم صوت الصراخ والاستغاثة ، فأسرعوا بزورقهم الى تلك البقعة بين الجزيرتين ، فوجدوا امامهم الزورق مقلوبا ، وخلصوا تيريزا أولا ووضعوها فوق مقعد لتفيق ، ثم انقذوا لوران ايضا ... فأخذ على الفور يولول ويلطم خديه ويندب حظ صديق العمر !..

ولم يكتف بهذا ، بل غافل منقذيه والقى بنفسه فى النهر ، وراح يغوص ويطفو ، باحثا عن صديقه فى مواضع يعلم جيدا انه غير موجود فيها ، ويدعو الملاحين للتنقيب عنه معه فى تلك المواضع البعيدة عن نقطة سقوطه فى الماء ...

وبعد محاولات يائسة ، عاد الى البر واخذ يلطم خديه ، ويجذب شعره ، والملاحون يحاولون تهدئته والتسرية عنه ، وهو لايريد أن يتعزى ، ويصيح :

ـ انها غلطتى انا ... كان ينبغى ان امنع الفتى المسكين من الرقص والقفز على حافة الزورق بهذا الشكل الخطر ... ولكنه كان مجنونا من الفرح ... فانقلب الزورق وكدنا كلنا نهلك ، وصرخ وهو يسقط فى الماء يناشدنى أن انقذ زوجته لانها لا تعرف السباحة ... ولكنه هو ايضا لم يكن يعرفها ؟.. رباه !

وكما يحدث فى امثال هذه المناسبات ، انبرى ملاحان اقسما أنهما رايا الحادث راى العين ... وأن الفتى الغريق كان يرقص فى الزورق وكأنه على البر ...

— ما اتعس زوجته ! انها ستفيق على اسوا نكبة يمكن ان تحل بامراة ...

واقل زورق الملاحين لوران وتيريزا الى الضفة التى بها المطعم حيث المائدة المحجوزة ، وكان الطعام الذى اوصى بصنعه قد تم اعداده ووضع على المائدة فوق الشرفة ، وفى الوقت نفسه كان جميع من فى « سان اوان » فى ذلك اليوم قد سمعوا بالحادث الاليم ، فتجمع منهم فى مدى بضع دقائق خلق كثير امام المطعم ..

وكان صاحب المطعم وزوجته رقيقى القلب جدا ، فقدما للرجل والمراة ثيابا من ملابسهما الخاصة ، ولما افاقت تيريزا من اغمائها انتابتها الهيستيريا ، وانفجرت باكية بكاء يفتت الاكباد ، فلم يكن هناك مناص من ايوائها الى فراش صاحبة المطعم الخاص ..

ولما هدات المراة قليلا ، تركها لوران فى رعاية صاحبى المطعم ، واصر على الذهاب الى باريس ليبلغ النبأ المشئوم الى « مدام راكان » بأخف ما يستطيع من الاساليب ...

والحقيقة انه كان خائفا من حالة تيريزا العصبية ، وكان يؤثر ان يترك لها فرصة للتفكير ، ولحفظ دورها المطلوب منها اداؤه ...

أما الطعام الفاخر الذى اوصى به كاميلوس ، فكان من نصيب الملاحين الذين قاموا بالانقاذ المزعوم ...

الفصل الثالث عشر

استنجاد

وفى ركن مظلم من العربة التى اقلته الى باريس ، رتب لوران افكاره واحكم خطته ، وكان موقنا تقريبا من افلاته من العقاب ، ولذا كان الحبور يملأ جوانحه .. وكان حبورا جنونيا جارفا ، ولما وصل الى باب « كليشى » نزل من السيارة العامة ، واستقل عربة اجرة الى مسكن العجوز « ميشو » فى شارع السين قرب ممر القنطرة الجديدة ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة مساء ...

ووجد مفتش الشرطة المتقاعد جالسا الى مائدة العشاء مع ابنه اوليفييه وزوجة ابنه سوزان ، والحق ان لوران قدم الى هناك ليلتمس لدى الشيخ الطيب سندا يحميه ، على فرض أن ريبة قامت براس احد من رجال الشرطة الذين سيتولون التحقيق ، ولكى يجنب نفسه محنة ابلاغ النبأ الفظيع الى « مدام راكان » شخصيا .. فتلك مهمة كان شديد الاشفاق على نفسه منها ، لانه كان يتوقع منها أن تنفجر باكية نادبة ، وفى الوقت عينه يخشى الا يتقن اداء دوره كما يجب ، فلا يذرف من الدموع القدر الواجب !

ولما رآه الشيخ ميشو داخلا عليه بيته ، وقد ارتدى ثيابا عجيبة الشكل ، اصغر من حجمه الحقيقى بمراحل ، ومن نسيج خشن غير معهود فى لوران وابناء طبقته من الموظفين والمتعلمين ، نظر اليه نظرة تعجب وتساؤل .. فسرد لوران على مسامعه قصة الحادث بصوت مضعضع جدا ، كأنه مبهور الانفاس من شدة التأثر والفجيعة ، واختتم روايته قائلا :

— وهاأنذا قد جئت اليك يامسيو ميشو ، لانى لم ادر ماذا اصنع بهاتين المراتين المنكودتى الحظ ... ولم اجسر على الذهاب لملاقاة

أمه بمفردى .. فتعال معى .. اتوسل اليك ان تأتى !

وطوال الوقت ، ظل ميشو العجوز يرمقه بنظرات فاحصة ثابتة ازعجته جدا .. فالقاتل الجرىء قد رتب امره على أســـاس ان مفاجأته لهذين الشرطيين المتمرسين بروايته ، سيبعد عنه الشبهة ويكفل له النجاة بجلده .. ولكنه لم يتمالك نفسه من الارتجـاف عندما وجد نظراتهما مثبتة عليه بهذا الشكل .. وخيل اليه توجسه انه يرى الارتياب حيث لا وجود فى الحقيقة الا للعطف والدهشـة والرثاء ، ولـكن على طريقة رجال الشرطة الذين الفوا ســماع الخوارق من الحوادث والنـكبات بجمود مهنى ..

اما سوزان ، فلم تكن لها صلابة زوجها وحميها .. فشحب لونها شحوبا شديدا ، حتى لقد اوشكت أن يغمى عليها ..

وعندما انتهى لوران تماما من القاء ما لديه ، وبات مؤكدا ان المسكين كاميلوس قضى نحبه بهذه الميتة الشنيعة ، انفجر ميشـو بسيل من التحسرات والتفجعات ، وارتمى على مقعده ، وجعـل يقبض بأصابع متشنجة على ذراعى الـكرسى ، وهو يصـيح وهو يصعد الزفرات :

ــ يا الهى !.. يا لها من نكبة كبيرة !.. اهكذا يخــرج الفتى المسكين للنزهة .. وهكذا ، بدون مقـدمات ، يموت فجأة ؟ ! ما افظع هذا ! يا للمسكينة « مدام راكان » والدته ! ماذا عسانا نقول لها ؟.. حقا لقد احسنت صنعا بالقدوم الينا اولا .. فسنذهب معك بطبيعة الحال

ونهض الشيخ ، واخذ يذرع الحجرة فى حركات ثقيلة ، بحثا عن عصاه ، وقبعته ، وهو فى الوقت نفسه يستوضحه مرارا عن بعض التفاصيل ، ويطالبه باعادة السرد .. ويطلق التفجعات فى اثر كل عبارة يسمعها من فمه !

واتجه أربعتهم الى السلم فنزلوه معا .. وعنـــد بداية « ممر القنطرة الجديدة » استوقف ميشو لوران قائلا له :

ــ ابق انت هنا .. فوجودك سيكون صدمة فظيعة لها ، يحسن بنا ان نتحاشاها ... لانها ستدرك على الفور أن حادثا وقع لابنها ،

وسيضطرنا ذلك الى الاعتراف بالحقيقة كاملة قبل الوقت المناسب.. ونحن نريد أن نبلغها بتدرج قدر الامكان ، تجنبا للمفاجأة .. انتظر انت هنا ..

وازاح هذا الترتيب العبء عن كاهل القاتل الذى كان يرتجف خوفا من دخول المتجر ومواجهة الام ... فتنهد وهدأت بلابله ، وراح يتمشى على طوار الشارع بأناة وهو يرتب أفكاره .. وفى بعض اللحظات كان ينسى ما حدث تمام النسيان ، وينصرف الى الاهتمام بما فى الواجهات الزجاجية من معروضات ، أو يلتفت خلفه ليتابع بنظراته النساء اللواتى يجتزن الطريق من أمامه ...

وظل فى هذا الموضع من الشارع زهاء نصف ساعة ، وسيطرته التامة على نفسه تعود اليه بسرعة ...

ولم يكن تناول شيئا منذ ذلك الافطار المتأخر فى ضحى النهار ، فشعر مع الطمأنينة بجوع مفاجىء ، فدخل محـلا لبيـع الحلوى والمرطبات وحشا جوفه بالفطائر الدسمة ..

اما فى المتجر الكائن بممر القنطرة الجـديدة ، فكان المنظر يقطع نياط القلوب .. فمع تلطف الشيخ ميشو تلطفا شديدا فى الافضاء بالنبأ ، وزعمه ان الحادث انما هو وعكة طارئة خفيفة ، فقد استطاعت « مدام راكان » أن تدرك ان حادثا وقع لابنها الوحيد ..

وعلى الفور طالبت زوارها الثلاثة بأن يعرفوها بالحقيقة كاملة بغير مواربة ، وكان صوتها صورة للفزع واليأس ، فالدموع تخنق انفاسها ، وتنهمر كالسيل على خديها ، وصرخاتها المختنقة الواجفة تخرج كالفحيح .. فاضطر صديقها القديم للاستكانة والرضوخ..

ولما سمعت الحقيقة المروعة ، صار حزنها فاجعـا رهيبا .. فالزفرات تهزها من فرعها الى قدمها هزا ، والعبرات والنشـيج يكادان يهدانها هدا ، والارتياع الجنونى يرسم على وجهها وفى عينيها امارات لا توصف .. وهى تطلق بين الحين والحين صرخة حادة ، كأنها ايذان بمروق سهم نارى فى فقارها المحدب ويافوخها المكدود

وكانت حرية ان تسقط على الارض مغشيـا عليها ، لولا أن سوزان سندتها بيـد ، وأحاطت خاصرها بيد ، وهى تبكى معها

بدمع غزير .. وظل اوليفيبه ووالده واقفين ، وقد خيم عليهما الصمت ، ينظران الى بعيد ، ولا يجسران على مواجهة ذلك المشهد الفاجع ..

وكانت الام المسكينة تتمثل امام عينيهـا ابنها المسكين ، وهو يكافح الامواج فى جوف نهر السين الطامى ، ثم تتمثله وقد انتفخ جوفه وتخشبت أوصاله ... ثم لا تلبث ان تتمثله طفلا رضيعا ، وغلاما ضعيفا واهن الجسم تسهر عليه وتمرضه وتذود عنه الموت كرة بعد كرة .. ثم هاهو ذا واأسفاه يموت غريقا وهو يتنزه ويلهو!

لقد منحته الحياة اكثر من عشر مرات .. وزاد حبه فى قلبها مع كل نصر احرزته على الموت ، وهى تستنقذه من علله المتوالية .. وهاهو ذا الآن قد مات .. مات بعيدا عن عينيها ، غريقا فى ذلك الماء البارد القاسى ، كما يموت الكلب ... وعندئذ قفزت الى ذهنها الاغطية الدافئة التى كانت تحرص دواما على لفه بها منذ كان طفلا صغيرا .. وانهمرت دموعها ، وتعالت صرخاتها الملتاعة .. وتمنت لو ان الموت ادركها قبل هذا وصارت نسيا منسيا ..

واشتد الموقف على الشيخ ميشو ، فصار يتعجل الانصراف ، وترك زوجة ابنه « سوزان » مع « مدام راكان » ، وتأبط ذراع ابنه « اوليفييه » وانصرفا ليأخذا لوران ويذهب ثلاثتهم الى « سان اوان » ..

وفى الطريق الى هناك ، لم يكد الرجال الثلاثة يتبادلون كلمة واحدة ، وقد اسند كل منهم ظهره الى مسند العربة التى استأجروها ، وهى تهتز بهم فى طريقها الطويل فى هدهدة متصلة..

وعندما وصلوا اخيرا الى المطعم القائم على شاطىء النهر ، وجدوا تيريزا فى فراش صاحبة المطعم ، وكانت حرارة راسها ويديها عالية ، وهمس صاحب المطعم فى آذانهم انها مصابة بحمى شديدة ..

والواقع أن « تيريزا » وقد شعرت بضعفها وخوار قواها وافتقارها الى الشجاعة ، خشيت ان تعترف فى هذيانها الهستيرى بجريمة القتل العمد ، فآثرت ادعاء المرض والايواء الى الفراش . وفى الفراش لاذت بالصمت التام ، وحرصت على اغلاق فمها وعينيها ، لان النظرات الزائغة قد تكون واشيا فصيحا عما فى أعماق

النفس ، ورفضت ان تكلم احدا او ان ترى احدا ، وغرقت تحت الاغطية وبين الوسائد ، وأرهفت اذنيها جيدا لكل كلمة تقال ... ولكن اطباق جفونها لم يمنع أن ترى صورة لوران وكاميلوس ، وهما يتصارعان فوق حافة الزورق ، ثم تراءى لها زوجها وهو يصارع الامواج ، يعلو فيها ويهبط شاحب الوجه زائغ النظرات .. فكانت هذه الرؤى كافية لدفع الدم حارا فى عروقها المكدودة ..

وحاول ميشو العجوز ان يتحدث اليها ويسرى عنها ويعزيها ، فندت عنها اشارة تدل على نفاد الصبر ، وأدارت له ظهرها ، ثم انفجرت منتحبة .. فقال صاحب المطعم :

ــ دعها وشأنها ياسيدى .. فهى ترتجف من ادنى صوت .. انها بحاجة شديدة الى الراحة ، ولا شىء سوى الراحة ...

وفى الطابق الاسفل ، فى البهو الكبير الذى تملؤه الموائد ، جلس شرطى يكتب محضرا بالحادث ، ونزل الى هناك ميشو وابنه ومن ورائهما لوران ، وبادر اوليفييه فاظهر للشرطى هويته ، وعرفه برتبته ووظيفته فى ادارة الشرطة ، فكان ذلك كفيلا بانهاء الشكليات جميعها فى اقل من عشر دقائق ..

وكان الملاحون الذين قاموا بالانقاذ موجودين ، فرووا القصة بكل تفاصيلها ، ووصفوا سقوط الثلاثة الى النهر على انهم شهود عيان ، فلو فرض ان لدى ميشو وابنه ادنى اشتباه لكانت تلك الشهادة الحاسمة كفيلة بالقضاء على كل شك ، ولكنهما فى الحقيقة لم يتشككا اطلاقا فى اقوال لوران .. بل انهما على العكس قدماه الى الشرطى على انه اعز اصدقاء الفقيد .. وحرصا على أن يسجل الشرطى ما جاء فى شهادة الشهود من القائه بنفسه ــ بعد انقاذه ــ للبحث عن صديقه معرضا حياته للخطر !

وفى صباح اليوم التالى ، نشرت الصحف ذلك الحادث ، وافاضت فى سرد التفاصيل ، وذكرت كل شىء عن الام الثكلى ، والارمل المفجوعة ، والصديق الشجاع النبيل ...

وعندما اقفل محضر الحادث ، وقيدت الحادثة قضاء وقدرا ، تنفس لوران الصعداء .. فمنذ اللحظة التى انشب فيها القتيل اسنانه فى عنقه ، وهو يشعر وكأنه ميت فى دخيلة نفسه .. يتحرك

ويتكلم بطريقة آلية تماما ، طبقا لخطة موضوعة منذ زمن طويل.. فغريزة حب البقاء هى التى كانت تدفعه وحدها للتصرف والكلام ، ولولا هذا لانهار تماما !

والآن ، وقد تأكد لديه انه افلت من العقاب فعلا ، أشرق عليه ضوء جديد ، وعادت الدماء الحارة الى التدفق فى اوصاله وعروقه تطالبه باستئناف المألوف من حياته الحافلة بالمطامع والرغبات ..

وقال للعجوز ميشو :

ـ اننا لا نستطيع ان نترك هذه المسكينة راقدة هنا .. انها قد تكون معرضة لمرض خبيث .. فمثل هذه الصدمات كثيرا ماتحدث حمى خطرة على الحياة ، يجب ان نعيدها الى باريس بأى ثمن .. تعال معى وسنقنعها بالعودة معنا

وصعدا الى الطبقة الثانية ، والحا على تيريزا ان تأتى معهما الى ممر القنطرة الجديدة ، فلما سمعت تيريزا صوت الشاب وهو يحدثها ، فتحت عينيها على سعتهما ونظرت اليه مليا ، وكانت ترتجف ، وفى نظرتها اجفال وتوجس ، وبعد ان اصغت لتوسله ، نهضت جالسة فى الفراش من غير أن تتكلم ، فانصرف الرجلان وتركاها وحدها مع صاحبة المطعم ، وبعد أن اتمت ارتداء ثيابها نزلت السلالم وهى تترنح ، واستقلت المركبة مستندة الى ذراع أوليفييه ..

وانقضت الرحلة فى صمت وسكون واجمين .. واثناء الرحلة وجد لوران من الجسارة وقلة الاحتشام ما مكنه من وضع يده على يد الارملة ، والتربيت عليها مواسيا وهو جالس فى مواجهتها ، ولكنها لم ترفع راسها المطرق ، بل ظل ذقنها دفينا فى صدرها ، وظل الحال على ذلك الى ان وصل الركب الى شارع مازاين .. وكان يحس بيدها ترتجف داخل راحة يده ، ولكنها لم تجذبها ، حتى كاد العرق المتصبب من الراحتين الساخنتين أن يلصقهما الصاقا .. وحتى خيل اليهما ان الدم يتدفق من قلب كل منهما الى قلب الآخر عن طريق ذلك الاتصال اليدوى ..

وعندما توقفت العربة عن المسير ، هبط منها ميشو وابنه

اوليفييه أولا ، وانتهز لوران هذه الفرصة وانحنى فوق عشيقته بخفة وقال لها :

ـ تشجعى ياتيريزا .. فأمامنا انتظار طويل .. تذكرى هذا ..

ففتحت المرأة فمها لاول مرة منذ وفاة زوجها ، وقالت له بصوت هامس كالنسيم :

ـ سأتذكر ...

وبسط اوليفييه يده كى يسندها ويعينها على النزول من العربة وفى هذه المرة دخل لوران معهم المتجر ، وكانت مدام راكان فى حالة هذيان ، فأدخلتها جارتها بائعة الحلى المزيفة وسوزان فراشها .. وجرت تيريزا نفسها جرا الى فراشها فى حجرتها التى كانت تنام فيها مع زوجها ، وساعدتها سوزان على خلع ثيابها ـ أو على الاصح ثياب صاحبة المطعم ـ ولما راى لوران ان كل شىء على ما يرام ، انصرف سيرا على قدميه ببطء

وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل .. والهواء البارد يكتسح الشوارع الخالية بقسوة ، ولا شىء يقرع اذنى الشاب الا وقع خطواته على الارض الصلبة المرصوفة بالحجارة ..

وافاده برد الهواء وانعش جبينه الملتهب ، واخذ يسترجع فى ذهنه بارتياح تفاصيل الجريمة واطوارها التى نجح اخيرا فى القيام بها بعد طول اعداد وتدبير ، وكان نجاحه شاملا كاملا ، وستطوى صفحتها ، ولن يذكر الناس من امرها شيئا بعد بضعة ايام ..

وقال لنفسه :

ـ الآن سيطيب لى ان استقبل الحياة بلا خوف ولا قلق، وسوف انتظر بلا فزع او توجس مرور الوقت المناسب لاتزوج تيريزا واحظى بقربها كيفما اريد ...

وتنفس الصعداء كأنه يزيح عن صدره كابوسا ثقيلا ، واخذ يملأ صدره فى ارتياح بهواء الليل العليل

ان وقت تدبير الجريمة كان شاقا .. وكان اشق منه وقت العزم على ارتكابها ، وتحديد الزمان والمكان ، وحتى اللحظة الاخيرة كان التردد يكاد يرده عما عقد العزم عليه ، فاحتاج الى كل ارادته

الحيوانية ليندفع فى الطريق المرسوم بلا امهال ولا تسويف .. وكان من شأن هذا كله ، ان يعقب لديه « رد فعل » شديد .. فكأنه يفيق من دوار ، أو من خمار ثقيل ..

وما ان وصـــل الى الحجرة التى يسكنها فى قمة البناء العتيق ، حتى استلقى على فراشه وراح فى سبات عميق ...

الفصل الرابع عشــر

اليقــين

وفى اليوم التالى ، استيقظ لوران موفور العافية ، فقد نام نوما عميقا جدا .. وكان للهواء البــارد الذى ينصب عليه من الـكوة المفتوحة فى السقف اثره فى تنشيط دمه ... ولم يكن يتذكر شيئا مما حدث فى اليوم السابق ، لولا الالم الشديد الذى شعر به فى اسفل عنقه ، من موضع الجلد المنتزع بين اسنان كاميلوس ، ولولا هذا الالم لاعتقد أن الامر كله حلم مزعج ، وانه اوى الى فراشه بعد العاشرة كما كان من عادته أن يفعل فى كل ليلة بعد سهرة هادئة .. اما وهذه البقعة من جسمه تلذعه كالابر المحماة فى النار ، فلا سبيل الى تناسى الموضوع ..

وازاح بيده طرف قميص نومه من عند الياقة ، ونظر فى المرآة الرخيصة المعلقة على جدار « زنزانته » ، ووجد الجرح احمر قانيا ، على شىء من العمق ، فى حجم المليم ، تتوسطه بقع سوداء داكنة ، وكان الدم الذى سال من الجرح قد جف فى خيوط على كتفه ، تحت اذنه اليمنى بقليل ...

وصب لوران على جسمه العارى كمية من الماء ، وهو يطمئن نفسه بأن هذا الجرح سيلتئم رغم بشاعة منظره ، فى مدى بضـــعة ايام على الاكثر ، ثم ارتدى ثيابه وتوجه الى مكتبــه بهــدوء تام كالمعتاد ، وهناك قص على الجميع القصة بصوت يرتجف من التأثر ، وعنـــدما طالع زملاءه ما نشرته الصـــحف عن الجريمة وعن دوره « النبيل » فيها ، أعجبوا به وازدهوا بزمالته ، وصار على الفور بطلا حقيقيا ..

وظل موظفو شركة سكة حديد أورليان ، ولا حديث لهم الا ما

فعله زميلهم الشجاع لوران ... وكان يزهيهم ان واحدا منهم واجه الموت غرقا ...

ولم يعد هناك ما يقلق بال لوران سوى امر واحد ... فموت كاميلوس لم يثبت بطريقة رسمية قاطعة .. اجل ان زوج تيريزا قد مات ، ولكن القاتل لا يطمئن باله الا اذا ظهرت جثته ، كى يمكن اصدار شهادة وفاة تحرر تيريزا رسميا من قيود الزوجية !..

وكان البحث قد استمر يومين بعد الحادث ، ولكن بلا جدوى .. وصار من الراجح ان جثة كاميلوس جرفها التيار الى فجوة فى أساس احدى الجزر الكثيرة فى تلك المنطقة .. وهناك استقرت ، ومع ذلك لم يزل هناك غواصون يجوبون نهر السين طمعا فى الحصول على المكافأة ان اكتشفوا جثة كاميلوس راكان الضائعة ..

وحرص لوران على التوجه الى مشرحة باريس كل صباح ، لانه اقسم أن يتولى هذا الموضوع بنفسه ، ولم يرجعه عن ذلك الواجب ما احسه من كراهية وتقزز فى الزيارة الاولى ، حتى ان معدته اضطربت وغالب القىء بعناء شديد ... وفى طريقه الى المكتب صباحا يدخل المشرحة ، وينظر فى وجوه الغرقى المعروضين وراء الواجهات الزجاجية ..

وفى كل مرة كان يخيل اليه انه تعرف على وجه كاميلوس بين تلك الوجوه ، فيدق قلبه فى صدره دقا عنيفا .. ثم يحس كأن انسانا طعنه فى فؤاده طعنة مصمية ..

كان يجمع بين النقيضين فعلا : فهو اساسا يريد أن يطمئن الى وجود جثته ليستخرج شهادة الوفاة الرسمية ، وفى الوقت نفسه يفرق اشد الفرق من رؤية ضحيته امامه ..

وتسببت هذه الزيارات اليومية للمشرحة فى اصابته بالكابوس فأصبح لا يفيق الا وراسه يكاد ينفجر .. وحاول مرارا ان يقاوم الخوف ، ويقنع نفسه بأنه ليس طفلا حتى يليق به مثل ذلك العمل الذى لا يليق الا بضعف النساء ..! ومع ذلك كانت اعصابه تتمرد على ارادته الجبارة كلما دخل المشرحة ..

ولم يكن لوران الشخص الوحيد الذى يتوجه الى المشرحة كل صباح .. فهناك كثيرون يسبقونه فى الحضور ، وكثيرون غيرهم

يأتون بعده ...

وبعد اسبوع أوشكت مقاومة لوران على الانهيار .. فهو يحلم كل ليلة بالجثث التى رآها فى الصباح ، ويتمثل مآسيها على غرار ما شهده من غرق كاميلوس ، ويخيل اليه ان وراء كل غريق قصة زوجة خائنة لها عشيق دفع الزوج الى حياض الموت ، أو زوج له عشيقة دفعته الى اغتيال زوجته ليخلو لهما الجو ...

وهذا التعذيب اليومى الذى فرضه على نفسه ، متجلدا للتقزز، وصل فى النهاية الى الذروة .. فقرر أنه لن يعاود الذهاب الا مرتين بعد ذلك ، فلما دخل الى المشرحة فى صباح اليوم التالى ، اذا بقلبه يقفز داخل صدره قفزة مروعة .. فهناك ، فى احدى الصناديق الزجاجية سجى كاميلوس .. وكانت عيناه مفتوحتين ، على سعتهما ، تحملقان فيه ، وراسه مرفوع الى اعلى قليلا ...

واقترب القاتل من الزجاج ببطء ، كأنه يسير فى نومه ، وهو عاجز كل العجز عن تحويل عينيه عن فريسته ، ولكن اختلاجة ندم واحدة لم تخامر هذا الانسان ، وهو يرى جريمته امام عينيه .. لان القشعريرة الخفيفة التى سرت فى جلده لم تكن قشعريرة ندم واستنكار ، بل مماثلة لما كان يحس به كلما راى جثة بشعة ... مجرد قشعريرة اشمئزاز ، حتى انه شخصيا كان يتوقع أن يكون تاثره لمراى الجثة اكثر من هذا .. فكل احساسه الى جانب الاشمئزاز هو السرور لانتهاء متاعبه وقلقه وزياراته المزعجة للمشرحة العامة ..

وظل خمس دقائق كاملة بلا حراك ، غارقا فى أفكار غير محددة ، يسجل بغير قصد منه جميع الخطوط البشعة والالوان الفظيعة التى تتكون منها الصورة التى تحت عينيه ..

والحق أن كاميلوس كان بشعا فى صورته الاخيرة ، وقد قضى فى جوف الماء اسبوعين ، ملأ فيهما الماء جوفه ، ومع هذا ظلت اسارير وجهه على حالها المعهود تقريبا ، وان كان الجلد قد اكتسب لونا ضاربا الى الصفرة مع اخضرار .. والتصق شعره بعارضيه ، والتوت شفتاه الى جانب واحد من جانبى وجهه ، فكأنه يبتسم

ابتسامة ساخرة .. وانفرجت اسنانه عن طرف لسانه وقد تضخم واسود ..

واما الجسد فبدا وكأنه كتلة من اللحم المتحلل ، فما اشد ما تعرض له بدنه الهزيل من التبديل والتغيير ! فهذه عظام الطوق من فوق قفصه الصدرى وقد اخترقت اللحم المتآكل وبدت عارية للعيان ، واضلع القفص الصدرى نفسه صنعت لها خطوطا سوداء أفقية فى ذلك اللحم المتآكل .. فصدره كله عبثت به يد التحلل الطبيعى ، اما ساقاه فصمدت اكثر مما صمد صدره ، فهما متخشبتان تماما ..

نظر لوران الى كاميلوس ، وهو على هذه الحالة ، فى امعان شديد .. فما من جثة من جثث الغرقى التى شاهدها فى المشرحة من قبل لها مثل هذه البشاعة المغثية ، على ضآلتها الشديدة ، ترى كيف كانت المسكينة تيريزا الشابة الفتية الفوارة الدماء بالصحة والعنفوان تطيق الحياة فى احضان هذا المسخ العليل ؟

واخيرا ، عندما تسنى للوران أن ينتزع نفسه من هذا التأمل الطويل الكئيب الذى استبقاه مسمرا فى مكانه اكثر من خمس دقائق — بدت وكأنها دهر لا ينقضى — غادر المشرحة ، وجد السير فى طريق أرصفة السين ، وهو يسأل نفسه :

— من ذا يقول ان هذه جثة كاتب كان مرتبه الفا ومائتى فرنك فى السنة ، ربته أمه بين عشرات الاغطية وسقته عشرات العقاقير ؟

وبعد بضع خطوات فى الهواء المنعش الطلق ، عاد يخاطب نفسه قائلا :

— هذا ما جنيته انا عليه .. هذه فعلة يدى .. ولكنه كان بغيضا يشين ثوب الحياة الذى ارتداه بغير حق ..

واتجه مباشرة الى مسكن الشيخ ميشو ، فأخبره انه اكتشف من فوره جثة كاميلوس فى المشرحة العامة ...

وفى مدى ساعات قلائل كان مفتش الشرطة المتقاعد وابنه قد تمكنا من اتمام جميع الاجراءات الشكلية ، وبها تم التعرف على الجثة ، وحررت شهادة الوفاة ووريت الجثة التراب ..

وبتحرير شهادة الوفاة ، حصلت تيريزا على وثيقة تحررها الرسمية .. تلك الوثيقة التى كانت الغاية الكبرى من كل هذا الذى حدث ، فأحس لوران ان متاعبه قد انتهت تماما ، وسمح لنفسه بكل ثبات ويسر ان ينسى جريمته وما اقترن بها فى ذاكرته من مناظر كريهة مزعجة ، وان لم تكن مؤلمة ... لان الاحساس بالالم والندم ليس له وجود عند ذلك الحيوان البشرى ..

دموع

اغلق متجر ممر القنطرة الجديدة ثلاثة ايام ، فلما فتحت ابوابه مرة اخرى للعملاء بدا احلك ظلمة واكثر رطوبة من ذى قبل .. فكأن اكوام السلع المبعثرة والمكدسة من فوقها طبقة من التراب فى حالة حداد — هى ايضا — على الابن الوحيد لمدام راكان ، وفى واجهتى المتجر كان كل شىء يبدو مهملا تمام الاهمال ، ووجه تيريزا بدا من بين البضائع والقبعات والطواقى اشد شحوبا ، واشد جمودا وغباء ..

وكانت الكارثة قد حركت مشاعر جميع النسوة الصالحات اللواتى يملكن حوانيت او واجهات تجارية صغيرة فى ذلك الممر الصغير ، وكانت المراة التى تبيع الحلى المقلدة فى مواجهة متجر مدام راكان تشير لزبائنها بأصبعها السبابة الى سحنة الارملة الشابة ، وكأنها تعرض عليهم نموذجا غير شائع من السلع غير المقلدة !

وقد قضت مدام راكان وتيريزا الايام الثلاثة فى الفراش ، من غير أن تتحدث احداهما الى الاخرى .. جالستين بين الوسائد الكثيرة .. والعجوز تنظر الى السقف نظرة ثابتة لا تتغير ، يغلب عليها الذهول .. فوفاة وحيدها كانت بمثابة ضربة هائلة من فأس حطاب على ام راسها ، فهى لا تدرى ماذا يكون من أمرها ولماذا تعيش بعد تلك الفجيعة الخاطفة ، التى ليتها كانت القاضية !

وكانت تقضى ساعات طويلة تباعا لا تتحرك فيها عضلة واحدة ، تائهة فى بحر اليأس ، ملقاة فى قاع هاوية القنوط .. ثم فجأة تنتابها الهستيريا فتصرخ صرخات ثاقبة وتولول وتهذى !

وتيريزا ، فى الحجرة الاخرى يبدو عليها معظم الوقت انها نائمة ،

لانها حريصة على تحويل وجهها باستمرار الى ناحية الحائط ، حتى لا تواجه احدا ، وقد غطت نفسها جيدا ، وحجبت عينيها ..

وكانت سوزان ، زوجة اوليفييه هى التى تتولى العناية بالمرأتين المرزوءتين ، فهى تتنقل بلا انقطاع من سرير هذه الى فراش تلك .. تسير على اطراف اصابعها ، ولكنها عجزت تمام العجز عن اقناع تيريزا بتحويل وجهها عن الحائط وتبادل اية كلمة معها ، وعجزت عن التسرية عن مدام راكان التى كانت دموعها تنهمر مدرارا متى سمعت اى صوت بشرى يخاطبها ..

وفى اليوم الثالث ، طرحت تيريزا عنها اغطيتها ، وجلست بسرعة ، كأنها اتخذت قرارا حازما مفاجئا ، ودفعت شعرها الى مؤخر راسها ، ووضعت راحتيها على عارضى راسها ، كأنها تريد أن تستوثق من وجود دماغها فى موضعه المألوف فوق كتفيها ، ثم قفزت فجأة من فراشها .. وكانت اوصالها ترتعد من شدة الحمى ، وقد انتشرت على جلدها بقع كثيرة حمراء اللون ...

لقد كانت هذه الايام الثلاثة كأنها بضعة اعوام انقضت من حياتها هباء ..

وعندما دخلت عليها سوزان ادهشها ان تجدها نهضت ، وبصوت هادىء بطىء نصحتها ان تعود الى الرقاد ، وتستأنف استجمامها ، لانها بحاجة شديدة اليه ، فلم تعرها تيريزا التفاتا .. وراحت تبحث عن ثيابها بحركات سريعة مرتعشة الى ان وجدتها ، وارتدتها. ولما اتمت ارتداءها توجهت الى المرآة وتطلعت الى نفسها فيها ، ودلكت عينيها ، ثم مسحت بيديها على صفحة وجهها ، كأنما تمسح عنه شيئا ما ..

وعندئذ ، ومن غير ان تتلفظ بكلمة واحدة اجتازت حجرة الطعام، ثم دخلت حجرة نوم مدام راكان ..

وكانت السيدة العجوز فى احدى حالات هدوئها الذاهل ، فلما دخلت عليها تيريزا ادارت راسها وتتبعت عيناها ابنة اخيها التى تقدمت من فراشها ووقفت بجوارها صامتة واجمة ..

ولبثت المراتان تتبادلان النظرات فى سكون .. الصغرى تنظر الى عمتها فى قلق متزايد ، والكبرى تبذل مجهودا واضحا كى تبعث

ذاكرتها من رقادها ، ولما تمكنت آخر الامر من التعرف عليها ، مدت مدام راكان ذراعيهــا الواهنتين المرتعشتين ، وطوقت عنق تيريزا وصرخت قائلة :

— يا لولدى المسكين ! يا لوحيدى كاميلوس !

وبكت الام ، وجفت دموعهــا فوق بشرة الارمل الحارة ، التى كانت تخفى طول الوقت عينيها الجافتين بين ثنــايا غطاء السرير ، وهى منكبة فوق عمتها تحتضنها .. وظلت تيريزا فى ذلك الوضــع الى ان كفت العجوز عن الانتحاب ، وهــدات انفاســها من فرط الاعياء ..

وكانت تيريزا منذ وقوع جريمة القتل ، تعتبر هذا اللقاء الاول بينها وبين عمتها المفجوعة فى وحيدها ، اخشى ما تخشاه .. وظلت فى عزلتها فى الفراش تفكر فى ويلات ذلك اللقاء ، وتحسب له الف الف حساب .. حتى قررت ان تقطع الشك باليقين ، وقد طال بها التفكير فى الدور الذى سيكون عليها ان تؤديه ، والذى يعتبر اللقاء الاول فاتحة له بل بمثابة « المفتاح الموسيقى » لسلوكها كله فى فترة الترمل الطويلة ...

ولما وجدت ان مدام راكان هدات بعض الشىء ، وقد سرت عن نفسها ، شغلت بها وراحت تنصح لها بالتماسك والتجلد ، والنهوض لتنزل الى متجرها وتتشاغل بالعمل ..

وكانت العجوز بعد هذه الصدمة الحاطمة قد ارتدت تقريبا الى مرحلة الطفولة .. فلما ظهرت بنت اخيها امام عينيها ، انفجرت دموعها الحبيسة ونفست عنها كربها الضخم ، وافادت فى رد ذاكرتها ونشاطها الذهنى اليها ، فوعت حالها وحال الناس من حولها ...

وشكرت العجوز لسوزان عنايتها الحانية وسهرها على راحتها ، وكانت تتكلم فى وهن ، بيد انها على كل حال لم تكن فاقدة الرشــد أو ذاهلة تهــذى .. وجعلت ترقب تيريزا وهى تروح وتجىء ، وفجأة انفجرت باكية مرة اخرى ، ونادتها بعد قليل ، وهدهدتها وربتت عليها وقبلتها وهى تنتحب ، وقالت لها بصوت مضعضع تخنقه العبرات :

— لم يعد لى فى الدنيا احد سواك ياصغيرتى ...

وفى ذلك المساء ، رضيت مدام راكان ان تنهض من فراشــها ، وان تحاول تناول شىء من الزاد .. وتسنى لتيريزا عندئذ ان تتبين بوضوح اية ضربة هائلة نزلت بساحة عمتها وكتب عليها ان تتحملها ان ساقى العجوز المسكينة صارتا اثقل من ذى قبل ، واشــد وهنا وارتعادا .. حتى انها يجب ان تستخدم عصا لتجر نفسها جرا الى حجرة المائدة ، ولما بلغتها شعرت وكأن جدرانها تدور من حولها وتتراقص ..

ومع هذا الضعف كله ، اصرت فى الصباح التالى مباشرة على فتح ابواب المتجر ، لانها خشيت ان تصاب بالجنون لو انها بقيت بمفردها فى حجرتها ...

وبتثاقل شــديد هبطت السلم الخشبى ، وهى تضــع قدميها كلتيهما معا على كل درجة من الدرجات المتقاربة ، لصعوبة حركة الساقين .. وشقت طريقها بعناء بالغ الى مقعدها المعتاد ...

ومنذ ذلك اليوم ، وهى لا تغادر هذا المكان ، فى وجومها الهادىء .. وبجوارها تستقر تيريزا فى اطرافها .. منتظرة ...

واستعاد المتجر هدوءه الحزين ...

الفصل السادس عشر

المقعد الشاغر

كان لوران يأتى الى المتجر فى المســـاء بين الحين والحين .. بمعدل مرة كل يومين أو ثلاثة أيام . وكان يمكث فى كل مرة قرابة نصف الساعة ، يتحدث الى مدام راكان ، ثم يغادر المتجر من غير أن يعير وجه تيريزا نظرة واحدة

وكانت العجوز تعتبره منقذ حياة بنت اخيها ، وصديقا نبيل القلب بذل كل ما فى وسعه كى يرد ابنها اليها .. ولذا كانت ترحب به فى بشاشة وحنان لا مزيد عليهما ..

وذات مساء من أمسيات الخميس ، كان لوران فى المتجر عندما حضر ميشو وجريفيه . وكانت الساعة تدق فى تلك اللحظة ثمانى دقات .. وكان كل من الرجلين قد قرر بينه وبين نفسه انه لابـد من بعث العادة التى انقطعت بمناسبة الحادث الاليم ، وهى عــادة قضاء السهرة عند مدام راكان فى مساء الخميس ، لان تلك العادة متى اتصلت بعد انقطاع ، اشعرت العجوز المسكينة ان الحياة متصلة . وخفف ذلك عنها بعض ما تجده فى عزلتها الحزينة من وحشة قاسية . وهكذا وصل الاثنان فى لحظة واحدة ، كأنما دفعتهما قوة واحدة ..

وبعدهما بقليل حضر أوليفييه وسوزان ..

وصعد الجميع الى حجرة المائدة ، وأسرعت مدام راكان ــ التى لم تكن تتوقع قدوم احد ــ فأوقدت المصباح الكبير واعدت الشــاى للضيوف القدامى

وما أن استقر الجميع فى مواضعهم ، وبين يدى كل منهم فنجانه الساخن ، وافرغت امامهم ادوات الدومينو بعد طول استكانة فى صندوقها ، أجالت الام الثكلى نظراتها بين ضيوفها المعهـــودين ثم

انفجرت باكية ..

فقد كان هناك مقعد شاغر .. مقعد وحيدها ..

وحز أساها الموجع فى قلوب ضيوفها ، ونزل عليهم نزولا شديد الوقع ، فتصلبت ملامح وجوههم جميعا ، واحسوا الحرج لانهم احياء وهو ميت .. وخجلا من أنفسهم لان الميت لم تبق له فى نفوسهم أى ذكرى حية ، فى حين أن تلك الام المسكينة تتلظى بذكـــراه التى لا تفارقها ...

وقال الشيخ ميشو بشىء من نفاد الصبر :

ــ على رسلك يا مدام راكان .. على رسلك .. لا ينبغى أن تحزنى كل هذا الحزن ، والاجنيت على نفسك جناية وبيلة ... واصابك المرض

وتنحنح جريفيه وقال لها :

ــ كلنا هالك ، وسلالة هالكين ، كما تعلمين ..

وقال أوليفييه بوقار متكلف رنان :

ــ دموعك ، مهما بلغ مقدار غزارتها ، لن تعيد ابنك اليك ...

وغمغمت سوزان قائلة :

ــ بربك يا مدام راكان ، لا تكسرى قلوبنا ..

ومع كل عبارة من عبارات التشجيع والتعزية ، كانت دموعها تزداد انهمارا ، وانتحابها يزداد عنفا ، فقال ميشو :

ــ صبرا جميلا يا مدام راكان .. ! شيئا من الشجاعة والتجلد ! يجب أن تدركى تمام الادراك أننا اتينا الليلة جميعا لنسرى عنـك فلا تنكدى عيشنا . وحاولى أن تنسى .. ســـنلعب برهــان .. وستراهنين معنا بمليمين .. ما قولك ؟

فبذلت العجوز جهد المستميت لتكفكف دموعها . ولعلها كانت شاعرة بهدوء سرائر ضيوفها وبرود قلوبهم ، وان دموعها لا محل لها بينهم . وبيد مرتعشة راحت تلعب الدومينو .. وكان من العسير عليها أن تتبين الاوراق التى فى يديها من خلال ستار الدموع التى وقفت حائرة بين اهدابها المقروحة ..

ولعبوا ...

وكان لوران وسوزان يرقبان ذلك المنظر الفاجع بهدوء تام . بل

أن الشاب كان مسروراً فى دخيلة نفسه لاستئناف عادة الاجتماع والسهر مساء الخميس من كل اسبوع ، لانه فى الحقيقة كان يتوق الى تلك السهرات لانها ستسهل عليه الوصول الى أغراضه . فضلا عن أنه كان يشعر بالارتياح وهو بين هؤلاء القوم الطيبين الذين اعانوه على الافلات من دقائق التحقيق ومزالقه .. ووجودهم فى الواقع يتيح له النظر بأمان الى محيا عشيقته ...

أما تيريزا ، الارمل الشابة ، فقد جلست فى ثيابها السود ، منطوية على نفسها كعادتها ، لا يبدو عليها شيء . وعندما كانت نظرات عشيقها تقع عليها ، كانت تواجهه بثبات تام ، فيشعر انها لم تزل له قلبا وقالبا ..

الفصل السابع عشر

تحوّل

ومرت على هذا المنوال سنة وثلاثة أشهر .. واختفت بالتدريج مرارة الساعات الاولى من الفجيعة ، وجلب كل يوم جديد معه سكينة نفس وهدوءا واستسلاما . واستأنفت الحياة سيرتها الاولى من الرتابة والتشابه والركود الذى يعقب الازمات الكبرى ..

وسرعان ما وصل لوران ما انقطع من عادات .. فصارت زيارته للمتجر كل مساء بانتظام ، بيد أنه لم يعد يتناول طعام عشائه هناك كل ليلة كما كان الحال فيما مضى ، بل يصل الى المتجر فى منتصف العاشرة ثم يغادره عند ما تحين ساعة اغلاق الابواب ... حتى أنه ليحق لك ان تقول انه بحضوره كل ليلة انما يؤدى واجبا عليه نحو المرأتين المحزونتين .. واذا اتفق له التخلف عن الحضور ليلة من الليالى ، بادر بالاعتذار عن تخلفه فى الليلة التالية فى تواضع التابع الامين . واما فى أيام الخميس ، فهو يقوم بمساعدة مدام راكان فى اشعال النار وتقديم واجبات الضيافة للزوار المعتادين .. فكان بهذا المسلك موضع رضا العجوز واعزازها

وكانت تيريزا تنظر فى هدوء الى رواحه وغدوه من حولها ، وقد فارق محياها بمرور الايام ذلك الشحوب الواجم ، وبدت الان أحسن صحة وأوفر عافية ، واكثر سخاء بالابتسام وارق حاشية مع الناس. وصار من النادر ان ترتسم على زاويتى فمها تلك الخطوط التى تدل على الالم والارتياع ..

ولم يحاول العاشقان أن يتقابلا على انفراد .. ولم يحاول أحد منهما أن يضرب للاخر موعداً للقاء ، أو يطلب منه تدبير مثل ذلك الموعد ... بل انهما لم يتبادلا قبلة واحدة على سبيل الاختلاس .

وكأنما تولت جريمة القتل التى ارتكباها فى سبيل غرامهما اخماد الجذوة المتأججة فى دمائهما ، أو كأنما كان فى ذلك الاغتيال الغادر ارضاء كاف لشيطان الرغبة الذى يكمن فى جسديهما ، فلم تعد بهما حاجة ملحة الى الاحضان والقبلات ٠٠ فالجرم الذى اشتركا فيه كان تجربة حسية من نوع صارخ ، جعلتهما يعزفان عن تعانقهما السابق عزوف التقزز والاشمئزاز ٠٠

ولم يكن ذلك التباعد لديهما نتيجة صعوبة فى تدبير الملتقى ٠٠ كلا ، فان الفرص الآن اسهل مما مضى بكثير جدا ٠٠ فالام الثكلى العجوز قد تدهورت صحتها ، وصارت اكثر وقتها شاردة أو مهومة تأخذها السنات تباعا ٠٠ واذا همت بالحركة لم تستطع المشى الا ببطء شديد ، ولا الصعود او النزول الا بمشقة مضنية ٠٠ فهى لا تتحرك ، ولا تكاد تتنبه لما يدور حولها من الامور . ولايمكن ان تعتبر عقبة جدية ولا شبه جدية ٠٠ تحول دون اختلاس الخلوة مرارا عديدة فى اليوم الواحد ٠٠ لان الدار فى الطبقة التى تعلو المتجر تحت تصرفهما الكامل ٠ وفى وسعهما ان شاءا ان يتلاقيا فى الخارج ٠ ولكنهما لم يفكرا فى شىء من ذلك ، وكانا يقضيان الوقت كله فى الحديث الهادىء أو يتبادلان النظر الطويل من غير ارتباك أو حمرة خجل ٠٠ اما الحب فلم يعد يغريهما بشىء ، وكأن شياطينه جميعا قد تبددت أو كأنهما نسيا تمام النسيان ما كان بينهما من عناق متأجج يكاد يحرق اللحم ويطحن العظام ٠٠٠

بل انهما اكثر من هذا وذاك ، كانا يتحاشيان ــ على غير اتفاق سابق ــ كل فرصة للاختلاء ٠ واذا اضطرتهما الظروف الى ان يتلامسا بالأكف عند المصافحة مثلا شعرا بعدم ارتياح . واذا فرضت عليهما الظروف الخلوة وحدهما فى المتجر ، كأن تذهب مدام راكان الى دورة المياه ، كان الصمت يسود بينهما ، لانهما لا يجدان ما يتحدثان فيه ٠٠٠ ويشفق كل منهما من تبلج هذا الفتور بينهما بصورة سافرة

ولكن يبدو أن كلا منهما كان يدرك تمام الادراك حقيقة الدوافع التى تجعل كلا منهما غير مستريح الى الاختلاء بصاحبه ٠ ويزعم لنفسه انها سياسة يمليها الحذر والحرص ، وان التباعد والفتور انما هما من وحى الحكمة والحصافة ، وان الهدوء الذى يسود جسديهما ورغبتهما انما هو شىء اختيارى !

وبين الحين والحين كانا ــ كل منهما على حدة ــ يسمحان لنفسيهما بالاسترسال مع الآمال وتصور المستقبل الذى طالما خاضا فى ذكره معا ، واشتركا فى تزويق أكنافه وحواشيه ٠٠

وفى البداية كانت تيريزا اهدأ العاشقين بالا ٠٠ فلا شىء يثيرها فى هذه الفترة ٠٠ وانما هى تترك لاعصابها الفرصة كاملة لتسترخى، ومتى جن الليل وأوت الى فراشها ، تقلبت فيه وحدها وهى تشعر بالسعادة الكاملة التى حرمت منها منذ سنوات طويلة ، فهى الان حرة غير مرتبطة بذلك المخلوق العليل المتحكم ٠٠ لها أن تفتح النافذة وتنام فى الهواء الطلق ، ولها ان تتقلب ، وتبسط ذراعيها ٠٠ ولا يوقظها الغطيط ولا الانين، حتى لقد كان يخيل اليها احيانا ان زواجها من كاميلوس لم يكن حقيقة ، بل مجرد كابوس انتهى عهده ٠٠ وأنها فى الحقيقة عذراء ، تنام فى حجرتها وحدها ، بين ستائر الفراش البيضاء ، فى انتظار الفارس الذى يفوز بزهرتها النقية !

وقلما كان ذهنها يفكر فى أمر لوران ٠٠ ولم يكن ذلك يحدث الا فى بعض الليالى التى تضطرب فيها أعصابها ٠٠ كما هو الحال مع النساء دائما فى بعض فترات من الشهر ٠٠٠

وفى غضون العام الاخير ، جعلت تسلى نفسها بقراءة الكتب التى كان يقتنيها كاميلوس ٠٠ ثم وصلت أسبابها بمكتبة تؤجر الكتب القديمة ، وتعلق قلبها بابطال الروايات الشعبية التى تطالعها ٠٠

وقد أثر عليها هذا الشغف بالقراءة تأثيرا كبيرا وغير مزاجها ٠٠ فصارت ذات حساسية عصبية واضحة ، بحيث تضحك احيانا او تبكى بغير سبب ظاهر ٠٠

وكانت تعجب احيانا لامرها ٠٠ ولكن الواقع ان استقرار سريرتها الداخلى قد انهار وهى لا تشعر ، وان هذه الحساسية هى اعراض ذلك الصراع الدفين فى أعماقها ٠٠

وفى لحظات متباعدة كانت تتذكر كاميلوس ، فترتجف رعبا ، ولا تلبث أن تصرف ذلك الخاطر عنها ، وتستنجد بذكرى لوران ، وتشعر نحوه بحنين جارف ، تقاومه باستماتة ٠٠ بحيث تتقاذفها حالات متناقضة ، ففى بعض الاوقات تفكر فى الفرار إليه لتتزوجه

فورا ، وفى الساعة التالية تقسم بينها وبين نفسها الا تراه ما عاشت!

والحقيقة ان الروايات الخيالية التى طالعتها مسئولة الى حد كبير عما طرأ عليها من اضطراب شديد .. لان هذه الروايات حافلة بل طافحة بحديث الشرف والعفة والطهارة ، فتكون لديها من هذه الاحاديث طبقة عازلة بين غرائزها الثائرة وعزيمتها الماضية. وهذه الطبقة العازلة جعلتها تميز لاول مرة فى حياتها بين ما هو فاضل وما هو فاسد ، بين الخير والشر ، بين الرذيلة والشرف .. وعرفت التردد .. ولم تعد ذلك الحيوان الصحيح البنية الذى لا يعرف الا شهواته ، فينطلق انطلاقا اعمى فى طريق ارضائها ، من غير تفكير فى أى اعتبار اخر ، لانه لم يكن يدرى أن هناك إعتباراً غير اعتبارات الغريزة البهيمية الجامحة !

بهذا الضوء الجديد استطاعت أن تعرف سر هدوء وجه سوزان زوجة اوليفييه ، ومعنى نعومة صوتها ونظراتها الخجول .. وادركت أن المرأة ليست بحاجة الى أن تقتل زوجها كى تنعم بالسعادة والهناء فى الدنيا ...

وعندئذ بدأت تفقد ثقتها بنفسها ، وتخامرها لحظات من التردد والحساب والتشكك فى الطريق الذى اختارته ...

أما لوران ...

لم تكن حاله على وتيرة واحدة ، فهو نهب لعاملين كبيرين.. ولذا كانت تتقاذفه الحمى المتأججة والسكينة ...

وكانت مرحلة السكينة الخالصة هى التى نعم بها فى البداية .. اذ تنفس الصعداء ، وظن انه نفض يديه من حساب هذا الانسان الذى كان عقبة تعترض طريقه . كان حجرا فى سبيل غايته ، وقد رفع ذلك الحجر والقى به فى عرض اليم كى يخلو له الطريق .. وهاهو ذا قد خلا فعلا ..

هكذا توهم فى البداية .. حتى وصل الى مرحلة من التجاهل التام بينه وبين نفسه لما حدث .. ولكن الاحلام اللعينة كانت لا تنفك تتراءى له بين الحين والحين ، فيجلس فى فراشه متعجبا ، ويتساءل هل هو حقا الذى قضى على حياة كاميلوس ؟ وهل هو الذى القاه فعلا فى اللجة بلا رحمة ؟ وهل جثة كاميلوس هى التى كان يترقبها حقا

وهو يذهب كل يوم الى المشرحة العامة ؟

كانت ذكرى جريمته تبدو له غريبة عنه تماما ! .. وكان يأبى أن يصدق فى نفسه انه قادر على قتل انسان ، فضلا عن صديق من أصدقاء الطفولة ، وزميل من زملاء الدراسة ... ويتفصد جبينه عندئذ عرقا باردا غزيرا كلما تذكر ان جريمته كان من الجائز جدا ان تفتضح ، وانه كان من الجائز بالتالى أن يرسل الىالمشنقة جزاء وفاقا على فعلته الشنعاء !

وكان يقول لنفسه عندئذ :

ـ عجبا ! كيف أمكن ان أقدم على مثل ذلك العمل ؟ لابد أننى كنت سكران .. ! لابد أن تلك المرأة خدرتنى أو سحرتنى بمداعباتها ! رباه ! .. أى حمار كان فى جلدى عندئذ ! أى احمق كنت حين جازفت بالموت !

الحمد لله على كل حال أن الامور انتهت بسلام .. ولكن لو أن الايام عادت الى الوراء قليلا ، لما أقدمت على تلك الفعلة بأى شكل من الاشكال ...

ثم يستأنف حياته لائذا بالسكينة والبعد عن الشبهات ، مقبلا على النوم والاكل ، حتى زاد وزنه ، وقلت اناقته وعنايته بمظهره .. بحيث لم يكن يخطر لاحد أن هذا العملاق البدين المتراخى الدمث الخلق يمكن ان تبدر منه أية حركة عنيفة .. وناهيك بالقتل !

وغبرت شهور كثيرة ، وهو مثال للموظف المجد فى عمله ، المواظب على مواعيده ، كأنه بالطاعة والجد يريد أن يبعد عن نفسه كل سخط .. وخيل اليه فى تلك الفترة أن غرائزه نفسها وصلت من فرط الخمود الى حد الموات الذى لا يرجى بعده بعث .. !

وطبيعى ان تيريزا لم تكن تخطر له ببال فى تلك الفترة من خمود الرغائب وخمول البدن والذهن . واذا تذكرها حين يراها ، فعلى منوال تذكر أى رجل لاية امرأة يضمر فى نفسه ان يتزوجها فى يوم من الايام ، عندما « يصلح الله الاحوال » .. !

وكان معظم تفكيره بمناسبة الزواج ، ليس فى أحضان تلك المرأة المشتهاة ، بل فى الرخاء المادى الذى سيتاح له بالاستيلاء علىالمتجر، بحيث يتقاعد ، وينصرف الىممارسة الرسمهاويا غير متكسب به ،

ويتجول فى الشوارع ، مستمتعا بالشمس والفراغ ٠٠ وكانت هذه الاحلام هى التي تربطه بمتجر القنطرة الجديدة ، وتسوقه الى هناك فى كل ليلة ، وتعينه على الفتور التام ازاء عشيقته السابقة ٠٠

وذات يوم من أيام الاحد ، وهو يوم العطلة من العمل ، وجد نفسه سأمان ، وليس لديه ما يشغله ٠٠ فذهب لزيارة زميل دراســـته الرسام الشاب الذى طالما شاركه فى مرسمه قبل أن يكتشف والده امره ٠ وكان هذا الفنان عاكفا على رسم صورة ينوى أن يرسلها الى معرض يقام قريبا ، وهى صورة غانية عارية تماما ، مستلقية فوق اريكة ٠٠٠

وكانت النموذج امرأة شابة مستلقية فى الوضع المطلوب للرسم ٠٠ وكانت بين الحين والحين تضحك وتتمطى باسطة ذراعيهـــا ، لتستريح من التصلب الذى يصيبها لطول البقاء فى وضع واحـــد ، فيهتز صدرها الناضج ٠٠٠ وكان لوران جالسا يدخن غليونه ويتحدث الى صاحبه الرسام ، ويرمق النموذج بعينين شرهتين ٠٠ وظل ملازما صاحبه الى المساء ، ولما انصرفت النموذج لحق بها وصحبها معه الى مسكنه ٠٠

وظلت هذه الفتاة النموذج تعيش معه زهاء سنة كاملة ، واتخـذ منها عشيقة . واحبته الفتاة المسكينة حبا حقيقيا ، لانه فى ذوقها يعتبر رجلا وسيما ٠ وكانت تغادره فى الصباح ، ليذهب الى عمله فى شركة سكة الحديد ، وتذهب هى للقيام بعملها نموذجا للرســـوم العامة لدى رسامين مختلفين ، لتعود بانتظام الى حجرته فى المساء٠ وكانت تنفق على غذائها وكسائها وزينتها من المال الذى تكسبه ، ولا تكبد لوران أية نفقة ٠٠ اما هو فكان لايهتم اطلاقا اين قضت سحابة النهار ، وعند من كانت ، وماذا كان من امرها معه ، ولا كيف حصلت على النقود ٠٠ فالمهم عنده انها لا تكلفه درهما ، وأنها تعود اليـــه دائما لتقضى الليل معه ٠٠

وكانت هذه الفتاة عاملا مساعدا على الاستقرار فى حياته ، بحيث كادينسى جريمته ، وغرامه السابق ٠ ولم يسأل نفسه اطلاقا هـــل هو يحبها حقا ٠٠ وفى الوقت نفسه لم يخامره أى إعتقاد بأن علاقته بها خيانة لعهد تيريزا ٠٠ وهكذا ازداد بدانة بمرور الايام وسعادة ٠٠

وفى تلك الاثناء ، كانت فترة حداد تيريزا قد انقضت ، فارتدت ثيابا من لون فاتح ٠ وذات مساء اكتشف لوران انها استعادت رونق شبابها وجمالها القديم ، بيد أنه لم يزل يشعر بشىء كثير من عدم الارتياح فى محضرها ٠ ولم يشأ أن يقامر بسرعة بما هو مستفيد منه حاليا من الاستقرار والبعد عن كل مسئولية أو التزام ٠ وأيقن أن زواجه من تيريزا ، او عودة علاقته بها ستعنى الاضطراب والمسئولية. وفى الوقت نفسه أيقن أن الوقت حان للتفكير فى إخـراج مشروع الزواج الى حيز التنفيذ ، وقد انقضى على وفاة كاميلوس ســـنة وربع ٠٠

ووضع موضع الاعتبار احتمال عدم زواجه اطـلاقا ، ونفض يده نهائيا من تيريزا ، والاحتفاظ بتلك الفتاة النموذج الى مالا نهاية ٠٠ ثم قال لنفسه :

ــ ولكنك يا فتى تكون قد قتلت انسانا بغير فائدة ٠٠ !

أفلست قد قتلت ، وعرضت نفسك للمقصلة كى تحصل على هذه المرأة بالذات ؟ فكيف بعد هذا كله تتخلى عنها كانك فعلت ما فعلت بلا غرض ؟

والحقيقة أن قتل رجل بالقائه فى النهر توصلا للحصـــول على ارملته ، ثم الانتظار اكثر من سنة ، والاكتفاء بمعاشرة فتاة حقيرة تتنقل بجسدها العارى من مرسم الى مرسم ، بدا له أمرا غـاية فى السخافة ، وانه فى الواقع ملك لتيريزا بموجب وثيقة الجريمـــة المشتركة والروح التى إزهقاها معا ٠٠ ففى استطاعتها اذا ايقنت من عزوفه عن الزواج منها أن تبلغ الشرطة بما كان منه ، فالانتقام يورث الكفر ٠٠٠ وكل شىء فى شريعة الحب مباح ، «وعلى وعلى اعدائى » !

وفى تلك الآونة بالذات ، تركته الفتاة النموذج الى غير رجعة ٠٠ خرجت يوم أحد فى الصباح ولم تعد ، لانها عثرت على ناد أفضل من حجرته ، وعشيق أيسر منه حالا ٠٠

ولم يحزن لوران حزنا شديدا ، ولكنه كان قد تعود على أن تشاركه حياته امرأة ، فأحس بفراغ ٠ وعزم على المضى فى مشروع زواجـــه من تيريزا ٠٠ وعاد الى المواظبة كل ليلة على قضاء الامسية فى المتجر وصار يتعقب تيريزا بنظرات يشع منها بريق التنمر والرغبة ٠٠

وذات ليلة ، وهو يساعدها فى اغلاق ابواب المتجر قال لها :
ــ هل آتى الليلة الى حجرتك ؟
فقالت المرأة بخوف شديد :
ــ كلا ! كلا ! يجب أن نلزم جانب الحذر ..
ــ لقد نفد صبرى .. وطال بى الانتظار .. واريدك الآن ..
فنظرت اليه نظرة عربيدة ، واحتقن وجهها وقالت له بعد تردد :
ــ فلنتزوج .. وعندئذ أكون لك كما تشاء ! ..

الفصل الثامن عشر

أرق

فارق لوران الممر تلك الليلة وذهنه متبلد ، وجسده متوتر .. فأنفاس تيريزا الدافئة قد ايقظت فيه كل أشواقه القديمة اليها ، وسلك طريق أرصفة السين ، وقد أمسك قبعته فى يده ، كى تتولى كل نسمة تهب من النهر ترطيب وجهه الحار ..

ولما وصل الى شارع القديس فيكتور ، واقترب من باب مسكنه تولاه فجأة الخوف من البقاء طول الليل وحده .. وهو نوع من الفزع الصبيانى الذى لا سبيل الى تفسيره ، يداهم الكبار على غير انتظار .. وكان لباب ذلك الفزع أنه سيجد عند صعوده رجلا مختبئا فى حجرته !

ولم يكن مثل هذا الفزع مما يراود لوران كثيرا .. ومع هذا لم يحاول طرد ذلك الخاطر الغريب او مقاومة الرجفة التى استولت عليه ، بل ذهب الى مخزن من المخازن الرخيصة التى تبيع النبيذ والفحم ، وقضى هناك زهاء ساعة وهو يشرب ، الى أن حان منتصف الليل .. وهو جالس بلا حراك الى مائدة فى احد الاركان

وكان فى جلسته الواجمة تلك يفكر فى تيريزا .. ولما افرط فى تجرع الشراب ، بدا صدره يغلى بالسخط عليها لانها ابت عليه الذهاب الى مخدعها فى تلك الليلة .. وخيل اليه انه لو كان قضى الليل معها لما انتابه هذا الخوف ..

وبعد منتصف الليل آذنه صاحب مخزن النبيذ باغلاق ابوابه.. فانصرف ، ولكنه لم يلبث أن عاد واشترى منه صندوق ثقاب . وكان السلم الصاعد الى حجرته ضيقا ، فى نهاية دهليز طويل مظلم ملتو أشبه بالسرداب الرطب . وكان فى العادة يخترق هذا الظلام

بغير تردد ، ولكنه فى هذه المرة صار يرتعد كالطفل الصغير .. وكان يحدث نفسه بأن القتلة يختبئون له فى بعض زوايا السرداب ، أو عند منحنى السلم بين طبقة وطبقة ، أو سيهاجمونه صاعدين من كهف الانبذة فى اسفل البناء ..

ولسوء حظه أن أول عود ثقاب أوقده انطفأ من تلقاء نفسه ، فتسمر فى مكانه وقلبه يدق دقا عنيفا كأنه طبول الحرب ، وبيد مرتعدة راح يشعل اعواد ثقاب اخرى .. وعلى الاضواء الخافتة المتراقصة ، بدت له اعواد حاجز السلالم وكأنها اشباح ضخمة ذات اشكال غريبة ملتوية مخيفة ..

وبشق النفس وصل الى قمة البناء حيث توجد حجرته.. وفتح باب الحجرة بحركة مفاجئة سريعة واغلقه خلفه بالمفتاح والمزلاج ، وانطرح على أربع فوق الارض ليفتش تحت السرير والدولاب والمنضدة ، حتى يتأكد ان الحجرة خالية تماما ..

واحكم اغلاق الكوة المفتوحة فى السقف على غير عادته ، معتقدا ان هذه الكوة منفذ سهل لمن يريد ان ينقض عليه !

ولما فرغ من كل هذه الاحتياطات هدأت أنفاسه قليلا ، وخلع ثيابه ، وبدأ يشعر بالعجب من جبنه المفاجىء . وانتهى الى الابتسام ساخرا من تصرفاته التى لم يجد لها تفسيرا ..

وأوى بعد ذلك الى فراشه .. ولما التف بالاغطية الدافئة ، وسرت الحرارة فى اوصاله .. عاد الى التفكير فى تيريزا ، وكانت مخاوفه العجيبة قد طردتها من ذهنه . واغمض عينيه فى اصرار محاولا النوم ، بيد انه وجد ذهنه يعمل بكل نشاط رغم ارادته .. ويجسم له الفوائد الكثيرة التى سيحصل عليها من التعجيل بالزواج من تيريزا .. وبين الحين والحين كان يقول لنفسه :

ـ انى على الاقل لن اعود الى التفكير والقلق .. سأكون بمنجاة من الخوف الصبيانى لانى لن أكون وحدى .. والان يجب أن أترك كل هذه الافكار وانام ، لانى سأذهب الى عملى فى الساعة الثامنه ..

وبذل جهودا كبيرة كى ينام ، ولكن أفكاره لم تترك له فرصة للراحة .. ولما وجد أنه لايستطيع النوم ، وأن الارق يسيطر عليه سيطرة تامة ، انقلب على ظهره ، وفتح عينيه على سعتهما ، وبدأ

يفكر تفكيرا صريحا فى تلك المرأة التى يريد ان يربط حياته بها رباطا أبديا .. وخطر له أن ينهض فيرتدى ثيابه فى هذه الساعة من الفجر، ويتسلل الى ممر القنطرة الجديدة ، ويدق باب مخدعها الخلفى الذى يعرفه جيدا ، وستضطر تيريزا الى ان تفتح له ..

ودفعت هذه التصورات الدماء حارة الى راسه وعنقه ... وازكتها تخيلات وذكريات كثيرة فاجرة، وخيل اليه ان هذه التخيلات حقيقة واقعة ، وان تيريزا ساهرة تنتظره لتفتح له بابها خلسة ، وقد ارتدت قميص نومها الابيض الناصع وهى على احر من الجمر

وهب من فراشه ليحقق ذلك الحلم، فكانت حركته كافية لاطلاعه على مدى وهمه وأغراقه فى التصور .. وتذكر الويلات التى مر بها وهو يصعد السلم الى حجرته .. فهل تراه يجازف بالنزول فى الظلام فى هذا الطريق ؟ ..

وكان هذا التساؤل كافيا جدا لرده عن عزمه الطائش ، فالتف بأغطيته ورقد مرة أخرى والدماء تتراجع فى عروقه وتهبط الى مستقرها ، وتدغدغ عروقه واعصابه .. وعندئذ أحس فى عنقه لدغا شديدا ، فى موضع الجرح الغائر الذى احدثته اسنان كاميلوس . وكان قد أوشك ان ينسى تلك العضة ، فأجزعه ان يجد اثرها على جلد عنقه لايزال باقيا .. وراودته نفسه ان يحكها بأظافره عسى ان تزول من موضعها ، فما كاد يلمسها حتى آلمته ألما شديدا جدا ، كأنها قطعة من الجمر.. فأسرع يضع كفتيه بين ركبتيه حتى لاتلمسا ذلك الموضع ، واخذ العرق يتصبب من جسمه كله

ان كل افكاره الآن قد تحولت عن مجراها الشهوانى بتأثير هذه العضة الى موضوع واحد هو كاميلوس .. ولم يكن القتيل قد ازعج قاتله قبل تلك الليلة الفريدة .. وكأنما بعث تفكيره فى تيريزا شبح زوجها من لحده ليؤرقه وينغص عليه أوهام لذاته المقبلة ..!

ولم يجسر القاتل على فتح عينيه ، اذ خيل اليه انه لو فعل لوجد شبح فريسته ماثلا أمام عينيه.. وتوهم فى لحظة من اللحظات أن الفراش يهتز به ، وخطر له أن كاميلوس لم يغرق ، وانما هو مختبىء تحت الفراش ، وانه يعابثه هذه المعابثة الخبيثة توطئة للانقضاض عليه !..

فانتصب شعر راسه من الخـوف ، وتشبث بالحشية متوهما ان اهتزاز السرير قد ازداد عنفا وقسوة !

ولم يلبث الا قليلا حتى ادرك أن سريره لا يهتز فهب جالسا وأوقد شمعته ، وتجرع كوبا من الماء البارد عسى أن يبرد حرارة جوفه ،وقال لنفسه :

ـ لقد أخطأت باحتساء هذا النبيذ ... وانا لا أدرى ماذا أصابنى فى هذه الليلة . ما أشد بلاهتى ! كان يجب أن أنام نوما عميقا كافيا فى هذه الليلة ، بدلا من التفكير العقيم فى كل هذه الاشياء .. لابد أن أنام ...

ونفخ شمعته مرة أخرى فأطفأها ، ودفن وجهه فى وسادته ، وقد انتعش قليلا .. وصمم على الا يفكر فى تلك الامور المثيرة مرة اخرى والا يفزع من اشباح وهمية . وكان الاعياء قد نال منه ، فنام نوما مطربا اشبه بسبات الحمى .. ولكن الاحلام لم تدع له فرصـة للراحة ، فرأى نفسه يهبط السلم فى الحلم، ويتجه خلسة الى المدخل الخلفى لبيت « آل راكان » ، ويصعد السلم ويطرق بخفة باب تيريزا ولكن بدلا من ان تفتح له تيريزا فى قميص نومها الناصع . وفى يدها المصباح .. فتح له الباب « كاميلوس » . ولم يكن كاميلوس الذى يعرفه طول حياته ، بل كاميلوس الذى رآه ذات صباح وراء زجاج المشرحة ، جاحظ العينين ، شائه المنظر ، كالح الابتسام .. !

كانت جثة كاميلوس الغريق هى التى استقبلته فى فرجة باب مخدع عشيقته الخلفى ، وقد فتح ذراعيه على سعتهما لاحتضانه ، وقد انفرجت أسنانه عن لسان منتفخ غليظ أسود !

وأطلق لوران صرخة مروعة ، وصحا من نومه فزعا مرتاعا .. وقد تفصد جسمه كله بعرق بارد مثلوج !

وجذب الغطاء فوق عينيه ، واستدار وحاول أن ينام مرة اخرى ، واستطاع أن ينام شيئا فشيئا .. وأصابه الاعياء هذه المرة أيضا .! وبعد قليل كان فى طريقه ـ وهو يحلم ـ إلى مخدع عشـيقته التى استولت على أفكاره .. ومرة أخرى كان زوجها الغريق هو الذى فتح له الباب ، فهب النائم جالسا ، وجعل يجذب شعره ، وهو مسـتعد للتنازل عن أى شىء فى سبيل تخليصه من هذا الكابوس المزعج ..!

إنه طيلة يقظته يستطيع التماسك ، وتشجيع نفسـه ، وطرد المخاوف والاشباح .. أما متى نام، فلا سلطان له على افكاره وأوهامه

وبعد لأى استطاع أن ينام ، ولكنه تعرض للمرة الثالثة للرؤى المرهقة لاعصابه ، فأفاق فى هذه المرة يائسا من حالته .. فهذا الغريق لا يريد أن يفارقه ويدعه ينام فى أمان ..

وظل جالسا فى فراشه يخشى أن يقفل عينيه ، الى أن بدأ الفجر ينبثق .. فنهض من فراشه وغسل وجهه وارتدى ثيابه فى تثاقل وهو ساخط على نفسه لطراوته وجبنه امام اشباح وهمية لا يخافها الا صغار الاطفال .. !

وأصر بينه وبين نفسه على أن تمنع تيريزا بالامس ، هو السـبب فى ثوران حواسه ومخيلته ، وقرر بينه وبين نفسه أن يضع حدا لهذا الكرب حتى لا يتكرر مرة أخرى ..

ـ اما « كاميلوس » فأنا لا أباليه حيا ولا ميتا .. فأنا لست جبانا ولو كنت جبانا ما أقدمت على ما اقدمت عليه .. وقد مضت كل هذه الشهور على الحادث ، ولم يظهر لى مرة واحدة ، ولم اضطرب لذكره يقظان ولا نائما .. وانما هو توتر أعصابى بسبب الحرمان ... وتمنع تيريزا ... قاتلها الله !

ووقف امام المرآة ليعقد رباط عنقه ، وازاح القميص ونظـر الى موضع العضة مليا .. فاذا اثر الاسنان واضح وقد احمر احمـرارا شديدا بسبب جيشان عواطفه .. وكأن مجموعة من الابر تعمل على وخزه فى ذلك الموضع بلا رحمة ولا هوادة .. فأسرع يغطى عنقه ، وقال لنفسه متأففا :

ـ ما هذا الهذيان ! انزواجى من تيريزا سيشفينى من هذا كله.. ولن أفكر فى شىء وهى تؤنس وحدتى وتشاركنى فراشى .. ولـن أفكر عندئذ افكارا سخيفة من قبيل وجود جثـة كاميلوس تحت فراشى ! هاها !

ولبس قبعته ونزل الى الشارع ، والساعة لم تبلغ بعد الخامسة صباحا. وقضى نهارا مزعجا عانى فيه من توتر أعصابه وتعب جسمه وصداع رأسه وزيغ بصره . وغلبه النعاس بعد الظهر وهو فى مكتبه، فلم ينتبه الا على اقتراب خطوات رئيس من الرؤساء ، فنهض مذعورا

.. فاضاف هذا الصراع النهارى عبئا جديدا الى الصراع الليلى وذهب رغم اعيائه الشديد لزيارة آل راكان ، فوجد تيريزا بادية الاعياء مثله ، محمرة العينين ، كأنها تعانى من حمى .. وقالت مدام راكان فى رقة بالغة :

ـ مسكينة تيريزا .. قضت ليلة رهيبة بالامس . ويبدو أنهـا عانت من الكابوس طول الليل ، فسبب لها ذلك ارقا متقطعا ، فقـد سمعت صراخها يشق صمت الليل بضع مرات ..

وبينما العمة تتحدث الى لوران ، كانت تيريزا تثبت نظراتها عليه. ولا بد انها ادركت ماحدث له ايضا فى تلك الليلة ، لان التعب كان مرتسما على سحنته كما كان مرتسما على سحنتها . وظلا جالسين يتبادلان النظرات خلسة الى الساعة العاشرة . ويتبادلان من حين لآخر طرفا من حديث عادى لامعنى له ، ولكنه يخفى تحت ألفاظه البريئة تواطؤا وتفاهما ورغبة متبـادلة فى تقريب موعد اجتمـاع الشمل ...

والحقيقة أن شبح كاميلوس زار فى تلك الليلة تيريزا كمـا زار لوران .. فان طلب لوران اليها فى الليلة السابقة أن تفتح له بابها سرا ، قد أثار لديها ، بعد طول الصمت والتباعد ، ما كان خامدا من احساسها . فلما رقدت فى فراشها جعلت تفكر فى وجوب التعجيل بزواجها من لوران .. ونامت وهى على هذا التفكـير ، فرأت من الاشباح والكابوس ما ازعجها اكثر من مرة . وزاد ايمانها بان اجتماع شملها وشمل لوران هو الذى سيعصمها من هذا القلق والفزع ... لانها لن تنام بمفردها ..

وابتداء من اليوم التالى ، قررت تيريزا أن تعمل على التمهيد للزواج بتصنع الاغماء ، والشرود ، والذبول ، حتى تحمل ضيوف مدام راكان فى سهرة الخميس على اقتراح تزويجها ! وممن يقترحون زواجها .؟ من صديق الاسرة الاعزب لوران بطبيعة الحال ! ..

وكانت تعلم أن هذه المهزلة تحتاج الى مهارة عظيمة فى التمثيل والى لباقة عظيمة فى الاداء والتأليف والاخراج ..

ولكن المهزلة كانت أسهل مما تظن ، لان الغـريق ظل مصرا على زيارة العاشقين كل ليلة .. مما جعل شحوبها طبيعيـا ، وتوتر

اعصابها وشرودها غير متكلفين . وكذلك كان شحوب لوران وشروده! فقد بلغ من اشتداد الوحشة على اعصابه انه كان يقضى كثيرا من الليالى متجولا فى الطرقات ، او مستلقيا فى الحـدائق العامة على المقاعد الحجرية تحت طل الليل القاسى ..

وفى الليالى الباردة ، كان يجلس تحت قناطر السين لعلها تحميه من الهواء والطل والمطر . ولكنه حين يغفو ، كان يرى أحلامه وكوابيسه وأشباحه كما يراها فى حجرته سواء بسواء ، فيهب فزعا من نومـه المضطرب ، ويؤثر اليقظة ، ويلعن الايـام ، ويتمنى أن يقترب يوم اجتماع شمله على عشيقته التى دفع أمنه ونومه ثمنـا للتخلص من زوجها ..

وظلا غير متجاسرين على الالتقاء المختلس ، خوفا من العيون التى تحيط بهما ... حتى لا تفسد الخطة .. فكان لابد من الصـبر الى أن يفتح الله على احد الاصدقاء فيفتح الموضوع ، وكأنهما ولا شأن لهما ولا رغبة فى الامر .. ويقبلان على سبيل التضحية والرضوخ

الفصل التاسع عشر

حيلة

وفى هذه الاثناء كانت جهود تيريزا ولوران الخفية تؤتى ثمارها تدريجيا ، فتيريزا بوجومها وشرودها اليائس أفزعت مدام راكان واقلقتها عليها ٠ واصرت العجوز على أن تعرف ماذا دهى ابنة أخيها ٠٠ وعندئذ تكلفت تيريزا الظهور بمظهر الارملة الحزينة بكل براعة ، وشكت من الملل ، والضجر ، ومن آلام عصبية عامة ، من غير أن تخصصها بتفاصيل ٠٠

ولما ألحت عليها عمتها أن تحدد مواضع الالم ، وأكثرت عليها فى الاسئلة ، قالت انها فى خير صحة وعافية ، وانها لا تدرى بالضبط ماذا يثبط روحها هكذا ، حتى إنها تكثر من البكاء من غير ان يكون هناك داع خاص لذلك ٠ وتشفع ذلك برفع منديلها ، واطلاق زفرة حبيسة ، ثم تبتسم ابتسامة تقطع القلب ، وتطرق مذعنة وتلوذ بالصمت الواجم ٠٠

وتحيرت العجوز ماذا دهى هذه الشابة ، وهى تزداد كل يوم شحوبا ، وتذوى كما يذوى القضيب من الرند ، من غير سبب ظاهر أو علة معلومة ٠٠ وكانت لا تنسى فى صلاتها كل ليلة أن تتضرع الى الله كى يحفظ لها هذه الابنة المباركة ، ولا يحرمها من آخر صلة لها بالدنيا ، فلو فقدتها لما وجدت من تسبل لها جفنيها حين تحين ساعتها الاخيرة ٠٠

والواقع ان هذا الحب الشديد من جانب الشيخة كان لا يخلو فى لبابه من انانية ، شأنه فى ذلك شأن حب الشيوخ جميعا ٠٠ فماذا يكون من شأنها لو إنها قضت نحبها وحيدة ، وتعفنت جثتها فى هذا المتجر المظلم الرطب ، فلا يدرى بأمرها أحد ؟ ٠٠ ان هذا الخاطر

يؤرقها ويشغل بالها ليل نهار ٠٠٠

واشتدت فى مراقبة احوال بنت أخيها بعد ذلك ، تتعقب اساريرها ، وما يبدو عليها من التنقل بين الوجوم والشرود ، وهى تكد ذهنها لتجد لها مخرجا من هذا الكرب ٠٠

وخطر لها ان خير ما تفعله فى هذا الظرف ، هو آن تسأل صديقها الشيخ ميشو الرأى والنصح فى هذه المشكلة ٠٠ ففى مساء الخميس التالى ، انتحت به ناحية من المتجر وافضت اليه بمخاوفها ، فقال الرجل بصراحته المعهودة :

ـ طبعا طبعا ٠٠ لابد ! ٠٠ لقد لاحظت هذا التغير منذ زمن طويل ٠٠

فقالت له مدام راكان بلهفة :

ـ وهل تعرف السبب ؟ تكلم ! تكلم ! ليتنى أعرف طريقة لعلاج حالتها هذه !

فأجابها ميشو ضاحكا :

ـ العلاج سهل ٠٠ بل سهل جدا بالطبع ! ٠٠ ان بنت أخيك تشعر بالضيق والهزال والسأم لانها تضيق بوحدتها فى حجرة نومها بالليل ! وقد طال عليها هذا الامر قرابة سنتين ٠٠ انها فتاة صحيحة البنية لا تستغنى عن رجل ٠٠ وهذا واضح جدا فى نظرة عينيها !

وكانت صراحة مفتش الشرطة السابق بمثابة لطمة قوية أصابت مدام راكان ، لانها كانت تحسب ان الجرح الذى يدمى فى داخل بنت اخيها ويجعلها تذوى بهذا الشكل ، هو من اثر حادث سان اوان ، وانها حزينة على ابنها الشاب حزنا لا تريد ان تتعزى منه ٠٠ ولم يخطر ببالها أن زوجا آخر يمكن ان يحل محل ابنها بين ذراعى بنت اخيها ، ولكن ها هو ذا ميشو يلح عليها وهو يضحك ضحكته العريضة ، ويؤكد لها ان مرض تيريزا هو مرض المراة التى تريد رجلا يؤنس وحشة لياليها ٠٠

ـ زوجيها بأسرع ما تستطيعين ان لم تكونى راغبة فى القضاء على ما بقى من نضرة شبابها .. هذا هو رأيى ياصديقتى العزيزة ، وثقى انها نصيحة صديق عرك الدنيا وجرب الحياة ٠٠ !

وبطبيعة الحال لم تستطع مدام راكان ان تتقبل هذه الفكرة لاول وهلة ، لان مقتضاها ان تسلم بأن ابنها العزيز الاوحد انتهى امره وصار نسيا منسيا .. وادهشها ان ميشو لم يذكر اسم كاميلوس على لسانه صراحة ، وانه كان يضحك كأنه يمازحها فى مسألة لاتخلو من تعريض بما يكون بين الذكور والاناث !..

وهكذا ادركت المراة المسكينة انها هى الوحيدة التى تحتفظ فى اعماق قلبها حقا بذكرى ابنها الراحل ·· وأحزنها ذلك حزنا كبيرا، فبكت بحرقة ، وزرفت دموعا غزيرة ·· فقد شعرت ان كاميلوس مات فى ذلك اليوم للمرة الثانية !

ولما أعياها البكاء وافرغت ما بجعبتها من الدموع، فكرت رغما عنها فى أقوال ميشو ، وأخذت نفسها بتعود تلك الفكرة ·· فكرة شراء شىء من السعادة لبنت أخيها مقابل هذا الثمن الفادح الذى كانما هو قتل لابنها مرة اخرى

ولما خلا المتجر فى اليوم التالى الا منها ومن بنت اخيها ، لم تطق صبرا على شرودها وذهولها .. وخارت مقاومتها ، ولاسيما لان مدام راكان ليست من النوع الفظ القاسى الذى يستمرىء الصمت واليأس والضياع ، ولذا كانت فى حالة من الضيق لاتوصف ، وهى ترى بنت اخيها لائذة بالصمت التام ، حتى كأنها جالسة بمفردها فى ذلك القبو ، واحست انه تحول الى لحد ...

كل هذه العوامل ساعدت على رضائها بفكرة زواج تيريزا للمرة الثانية ، واعانها ذلك التفكير على تجديد حياتها الراكدة بعض التجديد .. واخذت تكد ذهنها بحثا عن زوج لبنت أخيها ، وهى مسألة جدية للغاية بالنسبة لها ، لان العجوز المسكينة كانت مهتمة فى هذا المجال بنفسها وما يخصها أكثر من اهتمامها المباشر ببنت اخيها !

انها تريد تزويج تيريزا كى توفر لنفسها هى السعادة فى ايامها الاخيرة ، لانها تخشى ان يقلب الزوج الجديد حياة الاسرة راسا على عقب ، ويحرمها من رعاية بنت أخيها التى لا تستغنى عنها فى شيخوختها ، كأن يستقل فى معيشته ، أو يرحل الى بلدة اخرى الخ .. الخ ...

ثم أن مجرد تفكيرها فى أن شخصا غريبا سيدخل فى نطاق حياتها اليومية بجوه الغريب كان يزعجها جدا ، ويجعلها تتراجع ولا تفاتح بنت اخيها فى امر ذلك الزواج ..

وفى الوقت الذى كانت فيه تيريزا تؤدى ـ بكل النفاق الذى تعلمته من ظروف نشأتها وتربيتها ـ دور الاعياء والذبول والسأم وثبوط الهمة ، كان لوران يؤدى دور الصديق الخدوم الوفى العطوف الحريص على انتهاز كل فرصة لاداء الخدمات ـ فهو دائما فى خدمة المراتين ، ولا سيما مدام راكان التى يغدق عليها دائما عنايته واهتمامه ، وشيئا فشيئا استطاع ان يجعل وجوده فى المتجر عنصرا طبيعيا مألوفا ، فلا يكاد يتغيب حتى تفتقده مدام راكان ، لما يدخله عليها من تسلية ، ولما يبادر اليه من الخدمات الصغيرة .. فكأنه النافذة التى يدخل منها ضوء الشمس الى المتجر المعتم الرطب..

وقد يحدث أن يتأخر عن موعده فى بعض الليالى ، فاذا مدام راكان تتلفت حولها فى ضيق وقلق ، كأنما ينقصها شىء من شأنه الا ينقصها .. فهى تفزع الآن من فكرة قضاء الامسية وحدها مع تيريزا الصامتة الواجمة كأنها تمثال الكآبة والاحزان ..!

ولم يكن لوران يتغيب قليلا الا ليزيد من ثبات مكانته ورسوخها ، وليشعر العجوز بقيمته وفائدته لها .. ثم انتهى الى انه صار يذهب الى المتجر بعد خروجه من مكتبه مباشرة ، ويبقى هناك الى ساعة الاغلاق ، ويتولى بنفسه قضاء الحاجات ، وشراء البضائع من تجار الجملة ، ويحضر لمدام راكان كوب الماء أو المقص أو أى شىء تحتاج اليه ، لانها تجد صعوبة فى المشى ، وفى الوقت نفسه كان يبدى اهتماما وقلقا نحو حالة تيريزا الصحية ، بصفته صديقا نبيل القلب تدفعه الى ذلك بواعث اخوية !

وفى احيان كثيرة كان ينتحى بمدام راكان ناحية ، ويفضى اليها بملاحظاته وقلقه لذبول نضرة وجه المراة الشابة ! ثم يقول لها وهو يهز راسه اسفا وصوته يختلج بالاسى :

ـ اخشى ان نفقدها كما فقدنا العزيز كاميلوس .. .ولا فائدة من ادعاء العكس ، لا فائدة من تجاهل مرضها الغامض .. وا اسفاه على امسياتنا اللطيفة الانيسة حين يخطفها منا الموت !

وكانت مدام راكان تصغى لما يقوله لها فى جزع شديد ، فيستطرد قائلا :

ــ وا اسفاه ياسيدتى ! يبدو انه لا مفر لنا من هذا الرزء الفادح .. فها قد مات كاميلوس العزيز منذ زهاء سنتين ، وهى لا تريد ان تتعزى عن فقده .. لا حيلة لنا اذن الا التسليم والاذعان وترويض النفس على فكرة فقدها ...

وكانت هذه الاكاذيب تنطلى على العجوز طيبة القلب ، فتبكى بدموع غزار ، حتى لاتكاد تبصر ماامامها لتجدد حزنها بهذا الحديث على وحيدها .. فكلما ذكر امامها اسم كاميلوس انفجرت باكية ، وكان لوران يعرف تمام المعرفة تأثير ذلك الاسم ، وانها كثيرا ما طوقته بذراعيها وهى تبكى امتنانا لذكره اسم ابنها على لسانه ، آية على انه لم يزل يحفظ له ذكرى فى قلبه ، ولم ينسه كما نسيته الدنيا كلها .. فصار يتسلى بابكائها كلماأراد ذلك،ويتلذذ بممارسة تلك السلطة العجيبة على دموع العجوز وافكارها .. ثم يأخذ فى التربيت عليها وتعزيتها !

وذات مساء من امسيات الخميس المعهودة ، كان ميشو وجريفيه قد وصلا واستقرا فى حجرة المائدة مع الاسرة ، عندما حضر لوران متأخرا .. واتجه مباشرة نحو تيريزا وسألها برقة مهذبة واهتمام ودى عن صحتها ، وجلس بجوارها بعض الوقت ، وادى على احسن وجه دور الصديق المخلص القلق !

وكان لصورة هذين الشابين المتجاورين ، وهما يتبادلان الحديث الرقيق والسؤال عن الصحة تأثيرها فى ميشو ، فمال على اذن صاحبته العجوز مدام راكان ، وقال لها همسا ولكن بحماسة :

ــ هاك يا صديقتى الزوج الذى تريدينه لبنت اخيك ...

وما عليك الا ان تعدى العدة لذلك الزواج بأسرع وقت ، وسنساعدك على نجاح مسعاك عند اللزوم ...

وابتسم ميشو ابتسامة عريضة ، اخفى بها خواطر اخرى ... فقد كان يقدر ان تيريزا بحاجة الى شاب فتى قوى البنية ، وكان يتصور ما يحدثه زوج عملاق قوى كالثور من التغيير الكبير فى حالتها واقبالها على الدنيا بعد هذا الاعراض الشديد ...

واما مدام راكان ، فكأنما هبط عليها هذا الاقتراح هبوط الوحى والالهام .. فادركت على الفور جميع المزايا التى يفيئها عليها هذا الزواج بين تيريزا ولوران ، فهو الصديق الطيب الذى يحفظ ذكرى ابنها ، وهو الخدوم المحب لها ، الذى يألف المتجر ويحب حياتهما الهادئة ، وهى موقنة ان شيئا لن يتغير فى حياتها بزواجه من بنت اخيها .. فكل ما هناك انه سوف لا ينصرف عند اغلاق ابواب المتجر ، بل يصعد معهما الى الطابق العلوى ، وستضمن بذلك استمرار خدماته ورعايته لها .. وهو الذى كان من الممكن ان يتزوج فتاة اخرى تقطعه عن الحضور الى متجر لايربطه به الا الوفاء والمجاملة ...

وسرها ان تضمن مستقبلها وسعادة ايام شيخوختها بذلك الزواج ، وتقفل الابواب وتقطع السبيل على اسباب القلق .. بل وخيل اليها ان زواج تيريزا من لوران لن يكون خيانة تامة لذكرى كاميلوس .. لانه صديقه ، ولانه لن يغار من ذكرى ابنها الراحل ، كما كان حريا ان يغار منها اى زوج سواه ...

وطيلة سهرة تلك الليلة ، واثناء لعب الدومينو ، لم تحول مدام راكان عينيها عن الشابين اللذين جلسا متجاورين .. ترمقهما بحنان ، وهى تشكر المولى القدير على هذا الالهام الموفق الذى نزل على صديقها ميشو الحصيف !

ولم تفت هذه النظرات على العاشقين ، فادركا ان التمثيلية التى حبكا ادوارها واخرجاها معا ، آذنت أن تؤتى اكلها جنيا شهيا وان الفصل الختامى منها سترتفع عنه الستار قريبا ...

وقبيل الانصراف فى ختام السهرة ، تبادل ميشو مع مدام راكان حديثا قصيرا على حدة .. ثم تأبط ذراع لوران ، وقال له :

ــ اريد ان اتمشى معك قليلا فى طريقنا الى البيت الليلة ..

فقد تكفل ميشو لصديقته العجوز مدام راكان بجس نبض لوران ، ووجد لديه ــ كما هو منتظر ــ كل اخلاص وولاء للسيدتين الحزينتين ، ولكنه ابدى دهشة تامة عند سماع اقتراح ميشو عليه ان يتزوج تيريزا ، وقال بصوت يفيض تأثرا وتحرجا :

ــ انى احب ارملة صديقى الراحل حب الاخ لاخته .. واعتقد

انه من الخيانة لذكرى صديقى أن أفكر فى الزواج منها !! ..

والح مفتش الشرطـة المتقاعد على الشاب ان يقدم على هـذه « التضحية » رعاية للعجوز ، وانقاذا لصحة الارملة المحزونة !

— ثم لاتنس أن من واجبك يا لوران نحو هذه السـيدة التى تحبك حب الام ان ترد اليها فى « شخصك » ابنها الذى ترك فراغا فى البيت ، وأن ترد على تيريزا الزوج الذى يوشك خلو مكانه ان يورثها حتفها !

وشيئا فشيئا ، وبصعوبة ، سمح لوران لمفتش الشرطة ان يقنعه بوجهة نظره ، وصرح له اخيرا بالقبول ، وعندئذ راح الشيخ يفرك يديه سرورا ، وهو يهنىء نفسه على هـذا النصر الذى احرزه فى المناورة والمفاوضة !

وفى هذا الوقت بعينه ، كانت مدام راكان تتحه البيت الى بنت اخيها حديثا مماثلا .. وادت تيريزا دورها ببس ، فاحتجت على عمتها لتفكيرها فى شىء من هذا القبيل ، وابدت عزمها على البقاء وفية حتى النهاية لذكرى كاميلوس ، وانها لن تسمح لاى انسان أن يحتل مكانه فى حياتها وفراشها ..!

وراحت مدام راكان تطرى محاسن لوران ، وتبـين لهـا مزايا زواجها منه .. وانها شخصيا تريد هذا الزواج ، لانه سيريحها فى ايامها الاخيرة ، ويبدد شيئا من أحزانها القاتمة .. فقالت تيريزا بأناة :

— انى احب لوران حبا اخويا .. ولـكن ما دمت مصرة على هذا التوجيه ، فسأحاول ان احبه حب الازواج .. من اجلك انت ! لانى أريد ياعمتى ان اسعدك وادخل على قلبك بعض التعزية !

وعندما أوت مدام راكان الى فراشها فى تلك الليلة ، بكت طويلا ..
وفى الصباح حضر ميشو الى المتجر ، وابلغها نجاحه فى مسعاه ، وتبادلا الانباء والتفاصيل عن « لجنتى المفاوضات » وما جرى فيهما ، وقررا ان خير البر عاجله .. ولذا ستعلن الخطبة فى مساء ذلك اليوم نفسه

وعلى عجل ، اقيمت حفلة شاى بسيطة فى المساء ، وتم اعلان النبأ على الاصدقاء ، وبكى الصديق الوفى « لوران » وهو يقبل مدام

راكان ويناديها : « يا امى العزيزة » ... فانفجرت باكية بحرقة ؛ لان اذنيها تلقت هذا النداء لاول مرة منذ وفاة ابنها العزيز كاميلوس

واهاب به ميشو ان يقبل عروسه .. وعلى استحياء وفى تردد ظاهر ، تناولت مدام راكان يد بنت اخيها ، ووضعتها فى يد لوران وهى لا تقدر على الـكلام ، فلما تلامست بشرتهما سرت فى جسدى العاشقين قشعريرة ، وضغطت يده على يدها التى تكاد تشتعل من شدة الحرارة ضغطا عصبيا .. وبصوت مختلج سألها لوران :

— خبرينى يا تيريزا ... هل أنت راغبة حقا فى أن تعـاونينى على تحقيق السعادة وادخال السرور على قلب عمتك ؟

فقالت بصوت حبيس ، وهى مغضية ببصرها الى الارض

— نعم ... فهذا هو واجبنا نحوها ...

فالتفت لوران نحو مدام راكان ، وقال بثبات عجيب :

— عندما سقط المسكين كاميلوس فى الماء ، صرخ قائلا :

« انقذ زوجتى .. انى اعهد اليك بها .... » ولذا اعتقد انى اذ اتزوج تيريزا انما انفذ رغبته الاخيرة ووصيته المقدسة !

وعندما سمعت تيريزا هذا الادعاء الفاجر ، أحست كأن طعنة اصابت قلبها ، فأفلتت يدها من يده مضطربة ، وقالت مدام راكان وصوتها تخنقه العبرات :

— قبلها ... تبادلا قبلة .. فتتم خطبتكما على بركة الله !

وشعر الفتى بعدم ارتياح عجب له حين لامست شفتاه صفحة خد المراة .. وتراجعت تيريزا مجفلة كأن شفتيه قطعتان من الحديد المحمى .. فهى أول مرة يقبلها فيها هـذا الرجل أمام النـاس ..
وصعد كل دمها الى وجهها حتى كادت وجنتاها تحترقان !

وهى التى لم تعرف الحياء والخجل فى اتصالها بهذا الرجل عينه ، وخلعت معه منذ أول لمسة كل عذار ..

وحين انتهت هذه الازمة ، تنفس القاتلان الصعداء .. فها هو ذا زواجهما قد تقرر ، وهاهما ذان قد وصلا أخيرا الى الغاية التى طال مسعاهما اليها .. وتم الاتفاق على جميع الخطوات .. الليلة عينها

وظـل مسلك تيريزا ولوران رزينا وقورا ، رغم النكات والمزاح

المكشوف نوعا الذى تبرع به كل من جريفيه وميشو لتنشيط الجو وتبديد جو الكآبة ، وبدا من العروسين بوضوح انهما يؤديان واجبا قاسيا لا اكثر .. فكانت مدام راكان ترمقهما بنظرات الإمتنان !

وكان على لوران ان يستكمل بعض الشكليات ، واولها ان يكتب بعد القطيعة الطويلة خطابا الى ابيه يستأذنه فى الزواج ، وكان المزارع العجوز قد نسى تقريبا ان له ابنا فى باريس ، فرد بخشونة قائلا :

ـ لا شأن لى بك .. وفى وسعك ان تتزوج من تشاء ، اوتشنق نفسك ان اردت .. فالامر عندى سيان ، والمهم ان تفقه حقيقة واحدة مؤكدة .. انك لن تظفر منى بدرهم واحد !

واحزن لوران هذا الخطاب ، لانه ايذان بان والده ينوى ان يحرمه من ميراثه ، ولما اطلع مدام راكان على رسالة ابيه القاسية ، استاءت جداً من ذلك الوالد ، وراحت تبذل جهدها فى تعويض الشاب خيرا عن بخل ابيه وسخطه

وفى اندفاعها العاطفى ، اقدمت العجوز على عمل اخرق .. امهرت بنت اخيها بمتجر الخردوات .. نقلته الى اسم تيريزا وجعلته بائنتها فى الزواج ، وكذلك نقلت الى اسمها راس مالها المدخر المستثمر فى سندات حكومية ، وهو يزيد عن اربعين الف فرنك ذهبا ...

وهكذا جردت العجوز نفسها من كل الممتلكات الدنيوية ، وقدمتها وهى لا تدرى الى قاتلى وحيدها .. وتركت نفسها تحت رحمتهما بالكلية

واظهر لوران بوضوح انه لاينوى الاستمرار طويلا فى العمل مستخدما ، وانه سيستغل هذه البائنة الكبيرة فى الانصراف الى هواية الرسم ومحاولة الاشتهار فى ميدان الفن ..

وتعجلت مدام راكان معدات الزواج .. وبدا كأن كل انسان فى ذلك المحيط الضيق يبذل قصارى جهده لدفع تيريزا الى احضان لوران ...

واخيرا حل اليوم الموعود ...

الفصل العشرون

القران

وفى ذلك الصباح استيقظ لوران وتيريزا ، كلٌ منهما فى حجرة نومه الخاصة ، وهما يشعران بالسرور .. وان الليلة الاخيرة من ليالى الخوف والارق والرعب قد انقضت ، فلن ينام كلٌ منهما على حدة بعد اليوم .. وسيحميان نفسيهما من غوائل الرجل الغريق معا ...

ونظرت تيريزا فيما حولها ، وابتسمت ابتسامة غريبة ، وهى تقيس بعينيها حجم فراشها الكبير ... ثم ارتدت ثيابها على مهل، فى انتظار قدوم سوزان التى كان من المتفق عليه ان تأتى لتعدها للعرس ..

وجلس لوران فى الفراش .. وبقى فى ذلك الوضع بضع دقائق ، كأنما يودع حجرته الضيقة العتيقة ذات السقف المنحدر التى ضاق بها وكره الاقامة فيها ، وها هو ذا اخيرا يودع ذلك الجحر ، ليتخذ لنفسه امراة يقترن بها ولا تفارقه ..

وكان ذلك اليوم فى شهر ديسمبر .. والجو بارد ، فكان لوران يرتعد ، بيد انه اكد لنفسه فى اطمئنان وهو يثب من فراشه انه سينعم بالدفء منذ الليلة !

ومنذ اسبوع .. قدرت مدام راكان انه لا يملك مالا يساعده على مقتضيات العرس ، فدست فى يده كيسا به خمسمائة فرنك ذهبا ، هى كل مدخراتها النقدية ، وتقبلها الشاب من غير مماحكة او تظاهر بالتمنع والاباء ، واشترى لنفسه على الفور كسوة جديدة انيقة ، ومكنته هبة العجوز ايضا من تقديم هدايا العرس المعتادة الى عروسه تيريزا ، حسب التقاليد

وكانت الملابس الجديدة موزعة على كرسيين .. واغتسل لوران وتعطر ، ودعك جسمه بقارورة من ماء الكولونيا ، ثم شرع فى التزين بعناية فائقة ، لانه كان يروم ان يبدو وسيما انيقا فى كل عين تقع عليه ..

وعندما آن له أن يثبت اليـــاقة ـ وكانت من النوع الصلب المرتفع ـ شعر بوخزة الم فى جانب عنقه ، وسقط منه زر الياقة المذهب ، وضاق صدره ونفد صبره .. وخيل اليه ان النسيـج المنشى يحز رقبته ، ويكاد يقطع فيها قطعا ، ودفعه الالم الى اكتشاف مدى الضرر الذى آده أن يحتمله ، فرفع ذقنه ، وبدا له أثر عضـة كاميلوس وقد اصطبغ بالحمرة القانية ، لان الياقة المنشاة احتكت بالندبة احتكاكا يسيرا

وعض لوران شفته ، وشحب لونه .. فان منظر تلك النـدبة وهى ملطخة باللون الاحمر بين قان وقاتم ، تتخلله النقط السوداء ، قد اثار فى تلك اللحظة اعصابه ، فاذا به يقبض راحة يده على الياقة الصلبة فيكسر استواء نسيجها .. ثم اختار ياقة اخرى من مجموعة الياقات التى اشتراها وشرع يرتديها بعناية وحذر ..

واخيرا انتهى من ارتداء ثيابه .. واخذ يهبط الدرج وثيـابه الجديدة تكاد تشعره أنه مصلوب بداخلها ، بحيث لم يتجـاسر على الالتفات يمنة او يسرة ، ورقبته حبيسة فى القالب المنشى الابيض اللون ، وفى كل حركة تصدر منه ، او خطوة من خطواته ، او هزة من ساعديه ، كان يترك اثرا او كسرة فى ثيابه ، اما حركات راسه او التفاتات وجهه فهى قمينة ان تثير الموضع الذى غرس فيه الغريق اسنانه .. وهو شعور غير مناسب فى الوقت الذى يخطو فيه نحو الاعراس بحليلة ذلك الغريق !

وما أن التقى فى طريقه بعربة اجرة حتى استقلها لتوصله الى « ممر القنطرة الجديدة » ، كى ياخذ تيريزا من هنـاك الى مبنى البلدية ، ثم الى الكنيسة لاتمام مراسم العقد المدنية والكنسية ..

وفى الطريق ، توقف مرتين ليصـحب معـه الشـيخ ميشو ، وزميلا له فى شركة سكة حديد اورليان .. فهما شاهداه ، ولـما وصلوا الى المتجر وجدوا كل شىء على اتم اهبة .. فثمة اوليفييه

وجريفيه ، وهما شاهدا تيريزا ، ومعهما سوزان التى جعلت تتطلع الى تيريزا بنظرات الطفلة الى دميتها التى فرغت لتوها من تزيينها والباسها اثوابها الجديدة !

ومع ان العجوز المسكينة مدام راكان لم تبق فى ساقيها قدرة على المشى تقريبا ، الا انها اصرت على أن تصحب « طفليها » فى يوم عرسهما حيثما يذهبان .. فحملها اصحابها حملا الى عربة اجرة اخرى مع سوزان واوليفييه وجريفيه ، وانطلقت العربتان ، واكثر الجميع خفقان قلب هى تلك العجوز التى امتزج فى فؤادها الحزن الموجع ، والتذكار المؤسى ، وتجدد الحياة والسخاء والانانية !

وجرى كل شىء فى اعنته على ما كان منتظرا ، ســواء فى مبنى البلدية او فى الكنيسة ، ولوحظ على العروسين هدوؤهما التـام وحياؤهما ، فكان ذلك موضع استحسان من الجميع ، ولم يدر احد اى شعور محموم ثائر كان يغلى فى صـدريهما ، وهما يركعان فى الكنيسة أمام المحراب جنبـا الى جنب .. اوعندما نطقا بكلمـة « نعم » جوابا على السؤال التقليدى :

ـ اترضينه زوجا ؟ اترضاها زوجة ؟

ولكنهما كانا يتحاشيان التقاء النظرات .. ولما عادا الى العربة ، خامرهما احساس غريب مؤداه ان كلا منهما صار اكثر غربة بالنسبة لصاحبه من ذى قبل .. فكأن هذا « الرباط المقدس » العلنى قد باعد ما بينهما ، بدلا من أن يفيدهما زيادة فى القربى !

وكان قد تقرر ان يكون « عشاء الزفاف » مادبة عائلية فى أضيق الحدود ، واتفقوا على أن تتم فى مطعم صغير فى ضاحية « بتلفيل » وعلى الا يكون ثمة مدعوون سوى ميشو وولده اوليفييه وزوجته سوزان وجريفيه ، ولما كان الموعد هو الساعة السادسة ، فقـد انطلقت العربتان تذرعان بالعروسين والضيوف منازه باريس ، وفى الوقت المناسب توجه الجميـع الى المطعـم ، حيث كانت المـائدة المحجوزة لسبعة اشخاص فى انتظارهم ، داخل مقصورة خاصـة مطلية باللون الاصفر ..

ولم تكن المادبة بالغة اقصى غايات البهجة ، لان العروسين كانا فى منتهى الجد والاطراق والتفكر .. فهما يعانيان منذ الصبـاح

الباكر مشاعر غريبة مختلطة ، لم يجدا من هدوء البال ما يعينهما على تحليلها وتأويلها .. ثم جاءت هـذه « الشكليـات » السريعة المتلاحقة اليسيرة الفارغة فزادت من حيرتهما الشـديدة .. أمن اجل هذه التوافه تعذبا كل هذا العذاب ؟ اهذه الشكليات وحدها هى التى تجعلهما فى نظر الله والناس بريئين من كل اثم ، وصاحبى حق لايمارى فيه انسان ؟

وعلى المائدة اجلسوهما متقابلين .. فحاول كل منهمـا أن يكتم احساسه المتميع بأن يلقى الى صاحبه ابتسامات وجلة .. كانت تنتهى دائما الى الغرق فى بحر من الشرود مرة أخرى ..

عجبا ! انهما زوجان الآن .. ومع هذا لم يشعرا بأى تغير طرأ على حالتهما .. ففى أعماق احساسهما كانت هناك هوة عميقة لم تزل فاصلا بينهما ، وانهما ليتساءلان كيف ترى يمكنهما اجتيازها ؟ انه ليخيل اليهما انهما بعد ، فى الفترة التى تلت جريمة القتـل مباشرة ، عندما كانت العقبات المادية تعترض ارتباطهمـا العلنى السافر .. ثم يتذكران ان معنى مراسم هذا النهار انه يجوز لهما الآن .. بل ينبغى عليهما ـ أن يأويا الى فراش واحد منذ هـذه الليلة بالذات ، وان الناس يرحبون بكل دلائل هذه المعاشرة وثمراتها الطبيعية .. ومع هذا لم يجدا لديهما صدى للاحساس بالارتباط بل خيل اليهما أن يدا عنيفة فرقت كلا منهما عن الآخر ..

وتأويل ذلك الاحساس الغريب سهل المأتى .. فطول انتظارهما هذه القربى زهاء عامين ، قد أخمد ما كان زاكيا من جذوة رغبتهما ، فأتى ذلك على ماضى استعارها ، وتحول الفحم المتقـد الى رماد لا تشب فيه النار ..

وها هما الآن ولا أثر فيهما لما استشعراه عند يقظة الصباح من بهجة مأمولة واستبشار بما يحمله الليل اليهما من طمأنينة وسكون نفس طال بهما عذاب جائشها .. ها هما وقد جلسا يخيم عليهما صمت ولا سكينة ، وترتسم على شفاههما ابتسامة ولا بهجة .. لا يتطلعان الى امل مشرق ، ولا يساورهما استبشار المقبلين على صفحة فى العيش جديدة تتسم بالطرافة ..

ولوران على الخصوص ، كلما التفت براسه يمنة أو يسرة شعر

بوخزة الم فى رقبته ، فى موضع عضة كاميلوس .. فتسرى من ذلك الموضع قشعريرة فى بدنه كله ، من قمة الراس الى اخمص القدم ، ويخيل اليه ان أسنان الغريق ناشبة فى لحمه بعد ، لا تريد أن تفلت رقبته ، وان سلسالا من الدم الجاف يحيط بعنقه وصدره وكتفـه مرة بعد مرة ، ويكاد ينقلب احبالا تكبله وتصبغ صـداره الابيض الجديد بلون احمر قان ..

ولكن مدام راكان لم تكن تدرى من ذلك شيئا .. فهى شاكرة لهذين العروسين الشابين رزانتهما المناسبة للحـداد على وحيدها الراحل ، فأى ابداء للسرور من جانبهما كان حريا أن يجرح شعور الام الثاكلة جرحا غائرا .. فهى تكاد ترى راى العين وهى جالسة شخص ابنها الراحل ، قائما على راس المائدة بجوارها ، ليمنـع بنفسـه يد تيريزا الى لوران ، ويعهد برعايته اليه باعتباره صديقه الاوفى !

وأما جريفيه فلم يخطر بباله شىء من ذلك .. وانما هو عنـده عرس مثل سائر الاعراس ، وما هكذا الاعراس ! فلا بد من اشاعة المرح والدعابة .. ولم يثنه عن ذلك ما تلقاه من نظرات اللوم والزجر من ميشو وولده اوليفييه ، كلما نهض ليلقى نكتة غير محتشمة ..

وقال جريفيه فيما قال :

ــ لنشرب نخب الذرية الصالحة لعروسينا الشابين ..

فكان لابد من شرب ذلك النخب .. وتبادل العروسـان نظرة اجفال وقلق ، ووجههما شاحب ، فما خطر لهما من قبل انسيكون لهما البنون والبنات من هـذا الزواج ، واحدث هذا الخاطر فى بدنهما قشعريرة ..

وانتهى العشاء فى وقت مبكر .. واصر الضيوف على مرافقـة الزوجين الى خدرالعرس ، ولم تكن الساعة تجاوزت منتصف العاشرة عندما وصل الركب الميمون الى « ممر القنطرة الجديدة »

وكانت المراة التى تبيع الحلى المقلدة ، لم تزل جالسة خلف دولاب سلعها ، فرفعت راسها ونظرت باستطلاع الى العروسين ، وابتسمت ابتسامة غامضة .. ولكنها ابتسامة أشاعت الوجل والانقباض فى نفسيهما .. فلعل هذه العجوز كانت قد فطنت الى تسللات لوران

فيما مضى الى مخدع تيريزا ، فى خلسة من رقابة مدام راكان بعد الظهر او صدر الضحى ...

وانسحبت تيريزا على الفور الى خدرها ، ومعها مدام راكان وسوزان ، وبقى الرجال فى حجرة المائدة ريثما تتم اهبة العروس للجلوة ... وشرع الضيوف يسلقون العريس الضيق الصدر بالنكات الحريفة ، الى أن برزت سوزان ومدام راكان من مخدع تيريزا ، وقالت العجوز بصوت متحشرج للوران :

— زوجتك فى انتظارك يابنى ..

فارتج عليه ولم يدر ماذا يقول ، وسمر فى مكانه .. ولما رآها تبسط اليه يديها تناولهما مرتجفا ، وشد عليهما ، ثم دخل حجرة تيريزا وهو يتحسس الباب بيده ويتحامل علية ، كالسكران ...

الفصل الحادى والعشرون

الباب الآخر

وبعناية اغلق لوران الباب خلفه ، ووقف معتمدا بظهره اليه من الداخل برهة ، يدير عينيه فى الحجرة ، وقد بدا عليه القلق والضيق

وكانت المدفأة عامرة بألسنة من النيران المتراقصة ، ترسل اضواء صفراء وحمراء على الاثاث ، واغطية الفراش البيضاء ، وايضا على وجه تيريزا الشاحب . ولفرط حرص مدام راكان على اكرام العروسين عنيت بتعطير هذا العش ونظافته واناقته ، واحاطت الفراش الكبير ذى الاعمدة الاربعة بشرائط ملونة لامعة المفروض انها تدخل البهجة على النفس .. ووضعت على المدفأة الوانا مختلفة من الازهار والرياحين ، كان اريجها يملأ الخياشيم ، ويختلط بالعطر الفواح الذى ضمخت به اغطية الفراش ، وقميص نوم العروس ..

وكانت تيريزا جالسة فوق مقعد منخفض عن يمين المدفأة ، وقد اعتمدت بذقنها على يدها ، وراحت تحدق فى السنة اللهب المتماوجة . ولم ترفع اليه طرفها حين دخل عليها ، ووقع بصره على شعرها المنسدل على كتفها العارى ، وقد سرت فيه حمرة الدفء

وتقدم لوران خطوتين نحوها من غير أن يتكلم .. وشرع يخلع سترته وصداره الابيض ، وعندما صار فى قميصه الابيض المنشى ، نظر نحو تيريزا مرة اخرى ولكنها لم تتحرك .. وبدا عليه التردد، ثم فطن الى كتفها العارى ، فانحنى وهو يرتجف ليطبع على تلك البقعة الدافئة من بدنها قبلة ، واذا بالمراة تتباعد عنه وتنأى بكتفها كالمزورة .. والقت على لوران نظرة اشمئزاز ووجل ، فتراجع مضطربا ، كمن سرت اليه عدوى النفور والفزع

وجلس لوران فى مواجهة تيريزا ، فى الجانب الآخر من المدفأة

وظلا صامتين ساكنين فى موضعهما زهاء خمـس دقائق طويلة ، وكانت الاخشاب المشتعلة تطلق شررا وطقطقة بين الحين والحين ، فيضفى ذلك موجات من الاضواء على وجهى القاتلين !

لقد مرت قرابة عامين منذ آخر مرة اختلى فيها هذان العاشقان فى هذه الحجرة بالذات ، خلسة من اعين الرقبـاء ، تحت سـتار الضحى ، ولم يكن بينهما لقاء خلوة منذ تلك الزيارة التى اقدمت عليهـا تيريزا لمسكن لوران ، حيث اوحت اليه بفـكرة اغتيـال كاميلوس ..

انهما قد تباعدا عمدا منذ تم ذلك الاغتيال ، ادخارا لعواطفهما الى ليلة العرس ، وها هى ذى ليلة العرس .. وكل شىء مهيأ ، والفراش مفتوح الذراعين لاستقبالهما .. وهما جالسـان هكذا وجها لوجه ، لا يجسران على الملامسة ، وكأن فى ذراعيهما شـللا يعوقهما عن العناق المشبوب الذى لا يعوقه شىء ... ويكاد يزكيه كل شىء ..

ان عيونهما تتلاقى بنظرات لا تحمل معانى الاشتهاء ... نظرات فاسدة .. ولذا اخذا ينقبان فى اعماقهما تنقيبا يائسا عن بقايا لم تنطفىء من جذوتهما تحت الرماد .. حتى لقد خيل اليهما لفرط خورهما ووهنهما أن جسديهما قد خويا من الاعصاب والعضلات.. وتمنيـا لو أن لديهما القوى لهصر جسـديهمـا فى عناق يحرقهما ويحطمهما ، حتى لايكونا هزاة فى عيون الناس ، بل وفى نظر نفسيهما ايضا ..!

أمن أجل هذا السكون السخيف والشبوط فى الهمة ، جريا كل ذلك الشوط البعيد ، واقترفا جريمة القتل ، ولم يتحرجا من كل مأثمة ؟ !

وحاول لوران أن يتحدث عن الحب .. وأن يستعيد الى الذاكرة صورا من حياتهما الماضية فى تلك الحجرة بالذات ...

— تيريزا .. اتذكرين ساعات لقائنا بعد الظهر فى هذه الحجرة ؟ كان من عادتى أن اتسلل من هذا الباب .. الم يلفت نظرك أننى الليلة دخلت هذه الحجرة لاول مرة من الباب الآخر ؟.. ومعنى هذا اننا حران طليقان .. وفى وسعنا ومن حقنا أن ننعم بالحب والامن بلا وجل ...

وبرغم مجهوده ، جاء صوته حـادا متسـلخا .. وكانت المرأة تصغى لما يقول ، وهى تنظر اليه شاردة النظرات ، فاستطرد لوران:

— اتذكرين ؟.. كنت كثيرا ما احلم واتمنى ان اقضى معك ليلة كاملة ، من مبتداها الى مطلع النهار .. واستيـقظ على حـرارة قبلاتك واريج انفاسك .. واليوم آن لى أن أحقق هذا الحلم !...

وبدرت من تيريزا حركة سريعة .. كأنما صوته ادهشها ، ونظرت اليه فى توجس وهى ترتعد .. فقال بتلهف :

— فيم الخوف ؟ فيم التردد ؟.. ان المستقبل صار خالصا لنا.. لقد تغلبنا على كل عقبة ليصفو لنا الزمن ونعيش آمنين على حبنا.. وذهب كاميلوس الى غير رجعة ..

فكأنما مس جسد تيريزا تيار كهربى ، بذكر هـذا الاسـم على لسانه فى هذه الخلوة .. بل كأنما كان هذا الاسم كلمة السر التى اطلقت الجنى من القمقم .. فاذا شبح المقتول وقد انتصب بينهما ، فى ضوء النيران الصفراء المتراقصة اللهب ، وجف ريقهما ، وتبادلا نظرات خوف ، من غير ان ينطقا بكلمة واحدة ..

وثقلت هذه الوطأة على اعصاب القاتل ، فنهض قائما ، وراح يذرع الحجرة ويداه خلف ظهره .. ثم خلع حـذاءه فى عصبيـة ، وارتدى الخف الجديد الذى اشترته له أم كاميلوس .. ثم حاول أن يصل ما انقطع من الحديث بينه وبين عروسه ، متخيرا فى هذه المرة تفاهات عادية مما يتحدث فيه الغرباء والضيوف ..

وكانت تيريزا مدركة مراده كل الادراك .. واجتهدت ان تجاذبه اطراف حديثه ، وتجيب عن اسئلته .. فراحا يتكلمان فى كل موضوع مطروق ، ليتجاهلا حالهما من الارتباك والنفرة ، ثم قال لوران :

— ما اشد الحرارة فى هذه الحجرة !

— اجل .. ولكن البرد فى الخارج شديد .. وانى لاحس له زمهريرا فيما ينفذ من تحت الباب الخلفى ..

والتفت الاثنان الى ذلك الباب فى وجل .. فهو البـاب الذى يفضى الى الزقاق ، وكان لوران يسلكه فى تسلله فيما مضى .. ثم ساد بينهما الصمت فترة طويلة ، كأنما شبح كاميلوس قد نفذ من تحت الباب الآخر مع هواء الليل البارد .. وبعد قليل ، قالت تيريزا

من غير ان تذكر اسمه :

ـ هل رايته فى ذلك اليوم فى المشرحة ؟..

وكانه كان يتوقع ذلك السؤال ، فقد هز راسه وبلع ريقه وقال :

ـ نعم ...

وبعد فترة صمت أخرى ، جاءه سؤالها التالى :

ـ وهل كان يبدو عليه انه عانى كثيرا ؟..

ولم يجبها لوران .. واشاح بيده كانه يطرد ذلك الخاطر المزعج ، ونهض فسار اليها مفتوح الذراعين ليحتضنها ، ومد اليها عنقه قائلا :

ـ قبلينى ...

فنهضت تيريزا وتباعدت عنه ، فاحمر وجهه وقال بحدة :

ـ قبلينى .. قبلينى ..

فالقت براسها الى الوراء ، لتبتعد عنه ، فوقع بصرها على عنقه العارى ، ووضعت اصبعها فى فضول على موضع عضة كاميلوس ، وسالته :

ـ ماهذا ؟.. لم اكن اعلم ان فى هذا الموضع ندبة قبل اليوم..

فارتج عليه ، وتلعثم ، ثم قال بصوت كالفحيح :

ـ انه الموضع الذى عضنى فيه كاميلوس ونحن فى الزورق.. وقد اندمل الجرح وانتهى أمره ، والآن قبلينى .. قبلينى ..

واشار بيده الى موضع الندبة ، فقد أصر على أن تقبله فوقها تماما .. ولكن تيريزا تراجعت بشدة ، حتى كادت تقع فى النار ، وقالت :

ـ كلا .. كلا .. ليس هنا .. ليس فى هذا الموضع حيث كانت شفتاه !

وارتمت على المقعد ، ووضعت راسها بين يديها .. فجن جنون لوران ، وانقض عليها فتناول راسها بين يديه ، وارغمها على أن تضع شفتيها فوق ندبة الجرح تماما ، وظل مطبقا بفمها على الموضع فترة ، كادت تزهق أنفاسها ... فلما اطلقها راحت تمسح فمها بتقزز ..

وكانما خجل لوران من فظاظته ، فاخذ يتمشى ببطء فى المسافة

الواقعة بين الفراش والنافذة ، فان المه من موضع العضة هو الذى جعله يطلب الى تيريزا أن تقبله .. فلما ارغمها على وضع شفتيها الباردتين فوق الندبة ، شعر بمزيد من الالم ، ولم يدر كيف يدرؤه عن نفسه ..

والقى نظرة مختلسة على المراة التى اقترن بها ، فاذا بها منحنية فوق النار مقوسة الظهر .. وكأن ظهرها المنحنى يقول له انها لم تعد تحبه ، وانه ايضا لم يعد يكن لها حبا ولا رغبة ..

وشيئا فشيئا ، صارت حرارة الحجرة خانقة لا تحتمل.. وذوت الرياحين والازهار ، وفجأة خيل الى لوران انه يرى رؤيا من مسر الشياطين .. ففيما هو يتمشى بين النافذة والفراش ، راى وجه كاميلوس يطل عليه من احد الاركان ، وقد اكتسى خضرة شبيهة بخضرة الموت حين رآه فى المشرحة ، ووقف لوران كالمسمر فى موضعه من الارض ، وكاد يغمى عليه لولا انه اعتمد بيديه على أحد المقاعد ، واطلق شهقة حادة لفتت نظر تيريزا ، فرفعت اليه بصرها .. فصاح وهو يشير الى ذلك الركن برعب :

ـ هناك .. هناك .. ها هو ذا هناك !

وسرت عدوى الفزع الى تيريزا ، فجاءت والتصقت به كمن تحتمى بصدره .. ثم أفرخ روعها وقالت له هامسة :

ـ انها الصورة ...

ـ الصورة ؟ .. اية صورة ؟ ..

ـ الا تتذكر ؟.. انها الصورة التى رسمتها انت له .. لقد قررت عمتى ان تحتفظ بها فى حجرتها منذ الغد .. ولا بد أنها نسيت أن تنقلها ...

ـ آه .. ما اغبانى !.. انها فعلا صورته .. انزليها عن مسمارها بربك ..

وارتعدت ولاذت بصدره قائلة :

ـ كلا ... انى خائفة !

ـ اذن نقلبها ونجعل وجهها الى الحائط لنتقى نظراته .. هيا بنا ..!

ـ كلا ! .. لا تفعل !.. ارجوك !. لا استطيع

وافلت من يدها التى تتشبث بذراعه واتجه نحو الصورة ، واذا بنظراتها الثاقبة تلتقى بعينيه فيتراجع مذعورا ، ويقول لتيريزا :

ــ كلا يا تيريزا .. الحق معك .. لا استطيع .. فلتنزلها عمتك غدا ...

وعاد الى التمشى فى الحجرة .. ولكن شيئا اقوى منه كان يشد نظراته شدا نحو ذلك الركن الذى تحتله صورة كاميلوس ..

وبعد قليل سرى الذعر فى العروسين ، لانهما سمعا صوتا على السلم الخلفى المفضى الى الحجرة من الزقاق .. وهو السلم الذى كان لوران يستخدمه فى تسلله .. وصاح لوران فزعا :

ــ انى اسمع احدا يصعد السلم .. من تراه يكون ؟

ولم تجبه المراة .. فقد انصرف ذهنهما معا الى الغريق .. لماذا لا تكون روحه هى التى تصعد السلم ؟

واسرعا الى اقصى الحجرة ليبتعدا عن الباب .. وهما يتخيلان ان الباب سيفتح فى اية لحظة ، وتسقط منه على الفور جثة كاميلوس ، وظلا منكمشين فى ذلك الركن بضع دقائق .. ثم سمع صوت مواء ، واخذ الباب يهتز ..

انه القط « فرانسوا » ...

وفتح لوران الباب ، وانقض على القط المسكين والقاه من حالق .. وصرخت تيريزا صرخة خافتة وناشدته الا يفعل .. ولكنه هتف بها :

ــ انا لا احب القطط .. يخيل الى ان هذا القط يعرف اكثر مما تعرفه القطط الاخرى .. ان روح كاميلوس تقمصته ! يجب ان اقتله يوما ما ...

وجلس الاثنان بجانب النار مرة اخرى ، وقد نال منهما الاعياء العصبى الطويل .. ورنقا للنوم هنيهة .. ثم ما لبث الفجر ان ارسل اولى اشعته .. وهما على حالهما فى ليلة عرسهما جالسين بثيابهما على مقعدين متقابلين .. وبينهما نار خمدت بعد تأجج .

ولما ملأ الضوء الباهت الحجرة ، تمطى لوران وقال :

ــ يالها من ليلة .. ولكننا سننام نوما عميقا فى الليلة القادمة ؟

ولن نشعر بمثل هذه المخاوف الصبيانية بعد اليوم ، فحاولى اليوم ان تكونى مرحة بعض الشىء ...

فنظرت اليه نظرة غباء واعياء ، وقالت :

ــ سأجتهد ...

الندم

ولكن الليالى التالية كانت ادهى وامر .. وكان فى ظن القاتلين ان وجودهما معا فى فترة الليل سيحميهما من غوائل الغريق ، فلما باتا حقيقة معا تضاعف باجتماعهما الفزع والارتجاف !

وقبل ان يعرف لوران « تيريزا » ، كان سعيدا الى حد كبير — وهو لا يدرى — بحياة الهدوء والطمأنينة والحيوية الحيوانية التى ورثها عن سلالته الريفية .. فقد كان ينام ويأكل ويشرب فى اقبال وشهية شأن الحيوان السليم البنية . ومهما نزل بساحته من الاحداث ، لم تكن تتزعزع طمأنينته ، ولم يكن يزعج نومه او يقلق باله الا تأثير بدانته وما ينتجه من الوخامة فى الايام الحارة .. فهو على الجملة قبل هذه الصلة ، كان يعيش حياته بدمه وعضلاته لا بأعصابه . ثم اذا به بعد ان مضى شوطا طويلا فى هذه الصلة ، وقد صار اكثر حساسية .. وكأنما كانت القبلات الاولى من عشيقته ايذانا بيقظة جهازه العصبى ، ثم صار كالمدمن نوعا من المخدر لا يستطيع ان يعيش الا اذا سرت فى دمه جرعات جديدة منه بين الحين والحين . وهكذا سيطر تكوينه العصبى على مقاليد حياته وعزل دمه ، وافقده توازنه القديم ..

ولوران الآن فى هذه المرحلة من اختلال الاعصاب .. ولولا ذلك لما ارتعد كما يرتعد الطفل الغرير امام زاوية مظلمة فى سلم الدار التى يسكنها ، او امام ركن معتم فيه صورة . وكان الارق عاملا مشددا ، اتم عليه الاختلال ، وجعله كريشة فى مهب الريح . ونفذ الندم اليه من اوسع الابواب كموج الطوفان لاقبل له بمصارعته

ولكن ندم لوران كان ندما بدنيا محضا .. يحسه فى خلاياه وفى

اعصابه المتوترة ولحمه المرتجف خوفا من غوائل الرجل الغريق . فليس لضميره دور فى هذه المخاوف .. وهو لا يشعر بأدنى أسف لانه اغتال كاميلوس . ففى اللحظات التى لا يبدو له فيها شبح القتيل ، كان ينعم بالهدوء التام .. بل انه كان حريا لو تيسر للامور عود على بدء ان يقتل كاميلوس مرة اخـرى ، لو تحقق لديه أن مصلحته فى هذا القتل !

والحق ان امر لوران فى هذه الفترة عجيب .. فهو فى النهار يضحك على نفسه ويهزا من مخاوفه ، ويتعهد بأن يكون فى الليلة القادمة اشد تماسكا واصلب عودا .. ويتهم تيريزا بأنها تزعجه وتؤرقه بما يسرى اليه من عدوى ضعفها وقلقها .. ففى ظنه ان تيريزا هى التى ترتجف ، وانها وحدها هى التى تتسبب فى التعاسة التى تسود حجرة نومهما طول الليل .. ويلازمه هذا الشعور بقوته الى ان يرخى الليل سدوله ، فمتى اغلق عليه باب المخدع مع زوجته جعل جلده ينضح بعرق بارد ، ويهزه خـوف صبيانى ، وتتداعى اعصابه تداعيا يغشى على حواسه .. فكأن هذه المخاوف الليلية نوع من الحمى الراجعة التى تنتاب المريض فى مواعيدمعينة، ويبرا منها تمام البرء فى غير تلك المواعيد . وليس التشبيه بالمرض هنا مجرد تشبيه ، فلهذه المخاوف الليلية اعراض كأعراض الامراض .. وهو لا يشعر بها الا فى الليل مع تيريزا .. كانما تسرى اليه العدوى منها !

واما تيريزا ، فهى ايضا فريسة هزات عنيفة .. ولكنها كانت بحكم تكوينها الاصلى ذات استعداد لهـذه التأثيرات الانفعالية العميقة . وكل ماهنـالك ان ازمة مصرع كاميلوس ارهفت هـذا الاستعداد وجعلته يؤتى اقصى ثمراته ..

وهى فى رعبها تمثل الانوثة .. ولذا تقترن مخاوفها وارتجافاتها بنوبات من الندم . وكم من لحظة مرت بها وهى تقاوم الارتماء على ركبتيها تحت قدمى شبح كاميلوس ، تناشده الرحمة والعفو وتعاهده على التكفير . ولعل لوران كان مدركا بعض الادراك لتلك الحالة .. فحين يرتجفان معا فى الليل ، كان يلومها على ضعفها ، ويعاملها بقسوة وخشونة

وفى الليالى الاولى من عرسهما ، لم يجسرا على النوم فى الفراش .. فكانا ينتظران مطلع النهار جالسين قرب المدفأة ، او يذرعان الحجرة جيئة وذهابا ، كما كانا يفعلان ليلة القران .. فمجرد التفكير فى الرقاد جنبا الى جنب فوق ذلك الفراش ، كان يسبب لهما نوعا من النفور والذعر .. وباتفاق ضمنى تحاشى الزوجان القبلات ، ولم يعيرا الفراش التفاتا .. وكل ماهناك ان تيريزا كانت تعبث بأغطيته وتهوشها عند مطلع كل صباح تمويها على من قد يدخل الحجرة !

وحين كان يغلبهما التعب على امرهما ، كانا ينامان على مقعدين نوما تتخلله الكوابيس المفزعة .. حتى اذا استيقظا مع الصبح ، كانت اطرافهما متراخية ، ووجهاهما حائلى اللون ، فيتبادلان النظر فى بلاهة .. وينتابهما نوع غريب من الخجل لما ابداه كل منهما امام الآخر من فزع

ومن البديهى انهما كانا يتحاشيان النوم تحت ضوء تلك الظروف ما استطاعا الى ذلك سبيلا ، ويفضلان قضاء اطول وقت ممكن جالسين بجوار نار المدفأة ، يتبادلان الاحاديث فى اتفه الامور وابعدها عن الترابط .. وكل حرصهما ليس موجها الى انتقاء الموضوعات ، بل الى اتصال الحديث بحيث لا تخبو جذوته ولا تفلت خيوطه

واعجب من موضوعات الكلام التى لا تنقطع انهما لا يحولان رأسيهما عن النار التى بينهما ، فكلما التفت احدهما يمنة او يسرة خيل اليه ان شبح كاميلوس قائم فى الحجرة ، وانه يهم بالزحف ليجلس بينهما ويبسط يديه التماسا للدفء بوهج النار ..

وكان يخامرهما فى احيان كثيرة احساس غريب بأن جثة ذلك الغريق قد عادت الى الظهور ، مثلما ظهرت فى ليلة العرس ، وانها قابعة فى بعض الاركان المعتمة تسترق ما يدور بينهما من احاديث وتسخر منهما .. فيلقيان النظر الشزر للتأكد من هذه الاوهام !

وانتهى الامر بلوران الى رفض الجلوس .. وتشبث بذلك الرفض ، وهو يأبى ان يدلى بأسبابه الى تيريزا . وكيف يخبرها انه لا يامن على ظهره من غائلة شبح كاميلوس الذى يخاله دائما هنا أو هناك ؟

وانقضى اسبوع كامل والعروسان يقضيان الليالى بطولها على هذا النحو المرهق .. يستريحان بعض الشىء فى النهار ،ويستقبلان الهول مع سدول الليل . واعجب من هذا كله ، سلوك كل منهما نحو صاحبه . . فما من كلمة حب ، وكأن ماكان بينهما اضغاث احلام لا سبيل الى تجدد سيرتها او وصل ما انقطع منها .. فالذى بينهما اليوم ان هو الا تجلد ، او مطاولة ، او احتمال للمعاشرة على مضاضة شديدة .. ومنتهى املهما ان يفلحا فى اخفاء النفور والتقزز والاستمرار فى حفظ الظاهر ..

وبعد الاسبوع الاول ، بلغ من شدة اعيائهما انهما تجاسرا على الاضطجاع فوق الفراش .. ولم يخلعا ثيابهما خشية أن يتلامس جسداهما ، وكأن اية ملامسة بينهما ستسبب لهما الما .. !

وبعد ان قضيا ليلتين على هذا المنوال ، ينامان نوما خاطفا غير عميق .. جازفا بخلع ارديتهما والدخول تحت الاغطية ، بيد انهما ظلا حريصين على تباعد جسديهما .. فكانت تيريزا هى التى تندس تحت الاغطية اولا الى جهة الحائط ، وينتظر لوران الى ان تستقر فى وضعها المريح للنوم . ثم يغامر هو بالرقاد على الطرف الاخر للفراش ، فتبقى بينهما مسافة عريضة خالية ..

وفى هذه المسافة الوسطى كان يرقد جثمان كاميلوس ! ..

فعندما يضطجع القاتلان تحت غطاء واحد ويغمضان جفونهما ، كان يخيل اليهما أن جثة ضحيتهما الرطبة مسجاة فى وسط الفراش ، فتسرى قشعريرة الزمهرير فى أوصالهما . وتظل هذه الجثة حائلا شديدا بينهما ، وتنتابهما الحمى والهذيان فيخيل اليهما انهما يلمسان اطراف الجثة ويتنسمان ريحها .. فيحبسان الانفاس حتى طلوع النهار

وكان يخطر ببال لوران فى بعض الاحيان ، ان يهجم على تيريزا فيضمها بعنف بين ذراعيه ، كى يقضى بضربة واحدة على ذلك الوهم المزعج .. ثم لا يجد الجراة على ذلك ، لشعوره بانه لايمكن ان يمد ذراعه من غير ان يصطدم بجثمان كاميلوس . ويقر فى ذهنه ان القتيل لم يختر لرقاده هذا الموضع الوسط الا ليحول دون عناقهما

واخيرا رسخ لديه الاعتقاد بأن الزوج الغريق يغار منه ...

وبعد مدة تجرأ على محاولة اختلاس القبلات جسا لنبض الشبح، فكان الشاب يسخر من خوف زوجته ويأمرها بتقبيله .. فاذا للشفاة ملمس بارد كأن الموت سرى اليها . ويعقب ذلك احساس بالغثيان ، وترتعد تيريزا فزعا .. وتصطك أسنان لوران ، ويثور غضبه عليها صائحا :

ــ لماذا ترتجفين ؟ هل انت خائفة من كاميلوس ؟ هيا تعالى بين ذراعي فلم يعد هذا المسكين قادرا على الاحساس بشيء ! ..

وكانت تيريزا تخفى راسها تحت الاغطية وتنتحب .. فيزمجر زوجها قائلا :

ــ كنا نتعانق بلا وجل قبل موته ، ويتلهف كل منا على احضان الآخر .. ثم القينا به الى اليم ليخلى لنا الطريق .. ولالقيناه الى اليم مرة اخرى ان لزم الامر كى يخلو لنا الجو .. فدعى هذا البكاء وتشددى ، فمن البلاهة ان نعكر صفو سعادتنا .. هيا قبليني !

وقبلته المراة وهى ترتجف .. ولم يكن هو اقل منها ارتعادا !

ومر اسبوعان أو اكثر ، وهما يحاولان الانسياق فى حبهما .. ومع هذا لم يفلح لوران فى الاحساس بأن تيريزا ارملة ، بل اكتشف انه تزوج من امراة لها زوج لم يزل موجودا .. وان كان جثة غريق !

الفصل الثالث والعشرون

جهد اليائس

وشيئا فشيئا ، اقترب لوران من نقطة الجنون الصريح .. فصارت الفكرة المستولية عليه هى طرد كاميلوس من فراشه . وفى البداية كان يرقد فى الفراش بكامل ثيابه ، ويتحاشى أن يلمس جسد تيريزا .. ثم قرر التحدى والاقدام على عمل يائس، فيحتضن زوجته ويحطمها بين ذراعيه خيرا من ان يتركها لقمة سائغة لشبح ضحيته . وكان هذا التصميم عملا من اعمال العنف الغاشم الذى لا تستطيعه الا الطبائع الحيوانية ..

وذات ليلة ضم تيريزا بين ذراعيه فجأة ، مجازفا « بالمرور » فوق جثة الرجل الغريق التى ترقد فى وسط الفراش . وكانت تيريزا من جانبها قد سئمت هذه الحياة القاسية ، حتى باتت ترحب بالارتماء فى النار التماسا للخلاص من هذه الزعازع والاوهام .. فكانت ترد على عناق لوران بمثله ، وتبادله لهفة بلهفة ، واحتراقا باحتراق .. فاما احترقت بناره ، او وجدت فى احضانه راحة لنفسها ، وقضاء على الاوهام التى استعبدتها ..

ولما اكتمل عناقهما ، سرى فى جسديهما الالم والرعب ، وكأنهما سقطا فى اتون من الفحم الحجرى المتقد ، فأطلقا صرخة وازداد تشبث كل منهما بصاحبه ، حتى لا يتركا بين جسديهما المتعانقين ثغرة ينفذ منها شبح كاميلوس . ومع هذا لازمهما الاحساس بأن جثمان كاميلوس محصور بين جسديهما وان عناقهما يعصره عصرا، ويؤكد لهما وجوده ..

وبعد برهة ، لم يعد لديهما شك فى انهما يزيدان من عذابهما بهذه المحاولة اليائسة .. فانهما لم يجنيا الا صيحات الالم وشعور

الاعياء ، ولم يشعرا براحة لاعصابهما المتوترة . واخلف ذلك العناق احساسا عميقا بالتقزز والهذيان ، فانفجرا باكيين .. وخيل اليهما ان شهقات بكائهما تتخللها ضحكات سخرية . وان جثة كاميلوس ترقد منتصرة ، وهى ترمق بعين الشماتة لوران وهو منبطح على الفراش يبكى ، من شدة القهر ، وشعوره بالعجز !

وبلغ من احساس تيريزا بصدق هذا الوهم ، انها جعلت ترتعد خوفا من استغلال الجثة لفرصة انتصارها ، فيقدم شبح كاميلوس على احتوائها بين ذراعيه باعتباره مولاها الشرعى !

وشد ما احزنهما يقينهما ان مافشلا فيه كان هو السهم الاخير فى جعبتيهما ، وانهما لن يستطيعا بعد الآن تبادل قبلة واحدة ، وهكذا ادى بهما استخدام العشق للقضاء على الرعب الى مزيد من الرعب .. وقد تحققا ان عشقهما نفسه قد قضى عليه الفزع والخوف . ولم يدريا ماذا يصنعان بنفسيهما بعد ذلك !

ومنذ تلك الفترة ، بدأ الزوجان يعيشان حياة مزدوجة ذات وجهين .. ففى الصباح يرتدى لوران ثيابه على عجل ، ولا يشعر بالامن والاستقرار الا عندما يخرج الى قاعة المائدة ، وامامه قدح كبير من القهوة واللبن الساخن اعدته له تيريزا . وفى مواجهته جلست مدام راكان ترقبه ، وهو يأكل ، باسمة فى حنان .. فيحشو جوفه بالكعك والفطائر ، ويشرب كأسا من البراندى ، فترتد اليه ثقته بنفسه ، ثم يلقى التحية ويخرج الى عمله من غير ان يقبل المراتين ..

ومع مقدم الربيع، كان هواء الصباح المنعش يجدد قواه.. وصار يتحرى فى مسيره الجوانب المشمسة ، ومتى وصل الى مكتبه قضى النهار بطوله متثائبا فى انتظار وقت الانصراف .. ولا يضيره نومه ، فهو كاتب مثل سائر الكتبة لا راس له . وبدأ يفكر فى استئجار مرسى هادىء يقضى فيه النهار نائما ليعوض ارق الليل ..

واما تيريزا ، فهى من جانبها تشعر بكل راحة وهدوء طالما ان لوران بعيد عنها . وهى تشغل نفسها طول الصباح فى الكنس وتنظيف الحجرات وغسل الاطباق وما الى ذلك من الاعمال التى كانت تثير نفورها واشمئزازها فيما مضى . ولكنها اليوم متنفس

حسن ، و[illegible]ل بالها الى وقت الظهر ، فلا تجد وقتا للتفكير والقلق .. ولا يشغل ذهنها الا العنكبوت العالق بالسقف والاوضار العالقة بالصحاف . وعند حلول الظهر ، تدخل المطبخ لاعداد الفداء ، ثم تتناوله مع عمتها مدام راكان ..

وكانت العمة تحزن لما تراه من ارهاق تيريزا لنفسها بالعمل ، وتناشدها ان تستأجر خادمة . ولكن تيريزا تجيبها انها تؤثر التدبير والاقتصاد ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا ..

وبعد الغداء ترتدى تيريزا الثياب اللائقة ، وتنضم الى عمتها لتصريف شئون المتجر ، فتجلس فى مقعدها المعتاد وتسلم عينيها للاغفاء ، وتظفر اعصابها اخيرا بشىء من الراحة استعدادا لمحنة الليل .. ولولا هذه الفترة من القيلولة ، لاصيبت بانهيار عصبى واضح

وتدوم هذه الفترة الى الساعة الرابعة بعد الظهر ، حتى اذا سمعت الدقات الاربع ، نهضت قائمة وصعدت الى المسكن لتدخل المطبخ مرة اخرى ، وتعد على عجل طعام لوران .. حتى اذا بدا زوجها على عتبة الباب ، انتابت جسدها اعراض القلق والاضطراب، وكأن كابوسا جثم على صدرها !

ولم يزد مرور الايام ذلك الاحساس الا رسوخا ، حتى بات كل منهما يعمل الف حساب لوجود صاحبه معه ، ويتمنى لو طالت فترة النهار التى تباعد بينهما تلك المباعدة الواضحة

اما فى الليل فكلاهما يرحب بالسهر مع مدام راكان اطول مدة ممكنة ، تأجيلا للحظة العذاب بدخول مخدع النوم . وكان من نتيجة هذا الاحساس ان امسيات الخميس ، بسهراتها الممتدة ، كانت أحب اليهما من سائر امسيات الاسبوع الهادئة

وبعد فترة اخرى من الوقت ، بدأ الشلل يزحف الى جسد مدام راكان العتيق .. فهالهما ذلك لان معناه انفرادهما معا معظم الوقت ليلا ونهارا ، فأسرعا باستدعاء الاطباء ، وسهرا على علاجها بلهفة شديدة لم تدرك العجوز سرها الحقيقى ، فحمدت لهما وفاءهما .. وهما فى الحقيقة يخشيان بوفاتها ان تمتد حجرة نومهما حتى تشمل الدار كلها ، حين يكون الزوجان القاتلان وحدهما وجها لوجه، ويكون

ثالثهما دائما جثمان كاميلوس !

وكان هدوؤهما فى النهار ، يلقى فى روع الاصدقاء أن الحب يسود حياتهما ، وانه حب من النوع الهادىء المطمئن الذى لايحتاج الى كلام !

الفصل الرابع والعشرون

العودة إلى الفن

وبعد انقضاء اربعة اشهر ، بدا لوران يفكر فى جنى بعض مزايا الزواج التى طالما منى بها نفسه ، وذات مساء قال لمدام راكان وتيريزا انه قدم استقالته ، وانه سوف يغادر مكتبه الى الابد فى مدى اسبوعين .. فاظهرت تيريزا بعض القلق ، وان لم تقل شيئا ، واسرع لوران يوضح خطته :

ـ وساستأجر مرسما صغيرا ، وأعود الى ممارسة الرسم ...

واسهب فى بيان السأم الذى يشعر به فى عمله بالسكك الحديدية ، وانه لم يخلق لمثل هذا العمل الآلى .. وكيف ان الآفاق فى الفن رحيبة ، وهى جميعها مفتوحة امامه لو انه ثابر واجتهد .. وما دام الآن يملك المال الكافى لضروراته ، فمن الاجرام فى حق نفسه الا يمنحها الفرصة لتحقيق عظائم الامور والوصول الى الشهرة المستفيضة ...

ولم يكن هذا الحديث كله الا تمويها يستر به اشتياقه وحنينه الى حياة المرسم الاولى قبل انقطاع مال ابيه عنه واضطراره للتوظف .. وهى حياة طابت له بمباذلها وما تسنح له من اشباع حواسه على مائدة جمال الموديلات ، لا بما يبدع من تصوير ذلك الجمال على القماش !

وعضت تيريزا على شفتيها غيظا ، لانها لا تنظر بعين الرضا الى انفاق لوران لبائنتها التى تقيها عوادى الزمن وتضمن لها استقلالها المادى فى سبيل اشباع هواياته ولباناته الشهوانية المعروفة لها جيدا ...

ولما الح عليها فى ابداء رايها ، اعربت له بأوجز بيان وفى لهجة

حاسمة عن عدم استساغتها الا يكسب معاشه بعرق جبينه ، وان يركن الى جهودها وبائنتها ومتجرها ، ويكون عالة عليها فى كل شيء !

وشقها لوران بنظرة ثاقبة وهى تتكلم ، فاضطربت وتلعثمت.. ولم تجسر على النطق بالاعتراض القاطع الذى كان على طرف لسانها ، فقد قرات فى نظرته التهديد :

— سأقول كل شيء للعجوز ان لم توافقي !

وبدات تيريزا تتلعثم .. فأسعفتها مدام راكان قائلة :

— ان ولدى العزيز « فهكذا صارت تدعو لوران » على صواب تماما فى وجهة نظره .. ويجب أن تتيسر له الفرص لابراز مواهبه

فقد كانت المسكينة تدلل لوران ، كما كانت تدلل كاميلوس من قبل ، وكانت تسر للدعابات والقبلات التى يغمرها بها الشاب ، فكانت دائما فى صفه ، لاترد له طلبا ..

وهكذا تم الاتفاق على ان يستأجر الفنان مرسما صغيرا ، وان يتقاضى من زوجته وعمتها مائة فرنك ذهبا كل شهر لمصروفاته الخاصة ، وتم اعداد ميزانية الاسرة اعدادا جديدا على هذا الاساس ، وبحيث لا يمس راس المال بحال من الاحوال .. وهكذا اطمأن بال تيريزا ، ولا سيما بعد ان جعلت زوجها يقسم على عدم تجاوز مخصصاته ...

وفى اليوم التالى مباشرة استأجر لوران ذلك المرسم الصغيرالذى كان قد وضع عينيه عليه منذ شهر ، عند نهاية شارع مازارين ، وهناك عول على ان يقضى معظم وقته فى النهار ، بعيدا عن تيريزا ، حتى ولو لم يشغل نفسه فعلا برسم شيء !

وبعد اسبوعين ، ودع زملاءه فى شركة سكة حديد اورليان ، ونقل مقره الرسمى الى المرسم ، وهو عبارة عن خزانة فى أعلى البناء ، طولها ست ياردات ، وعرضها مثلها ، وارتفاعها مثلها ايضا ، ولكن السقف مائل ، وفيه نافذة كبيرة ، وضجة الشارع لا تصل الى ارتفاع الحجرة .. فهى اشبه بكهف اغبر اللون فوهته الى فوق ، وهو معزول عن الدنيا كلها

واحضر لوران مقعدين عتيقين ، ومائدة صغيرة ، ودولابا للمطبخ،

ولوحة للرسم ، وصندوق الوان ، وعنى باقتناء قطعة واحدة من الاثاث الفاخر الوثير ، هى اريكة او مضجع ضخم فخم عريض كانه الفراش

وقضى الاسبوعين الاولين هناك وحده ، لا يفكر فى لمس الالوان والفرشاة .. فكان يصل فى نحو الساعة التاسعة ، ويستلقى على الاريكة الوثيرة فيدخن مسترخيا الى وقت الظهر ، فيمضى الى « ممر القنطرة الجديدة » ليأكل ، وبعد الغداء يعود ادراجه الى المرسم بسرعة ، ليتخلص من وجه تيريزا الذى يذكره بأشجانه ومتاعبه ، ويقضى بقية النهار مستلقيا يدخن ، او نائما ، ولا يعود الى البيت الا فى الليل !..

وابدت تيريزا رغبتها فى رؤية هذا العش ، فلم يرحب بهذه الفكرة ، ولكنها نفذتها .. وذهبت فى اليوم التالى ، وطرقت عليه الباب ، وعرف خطوتها على السلم ، فابى أن يفتح وتركها تعود خائبة ، وفى المساء زعم لها انه قضى اليوم فى متحف اللوفر ، فقد كان يخشى ان يدخل معه شبح كاميلوس الى هذا الملاذ الامين الذى يعتصم به من مخاوفه

واخيرا بدا الفراغ يثقل على نفسه ، فاشترى قماشا واطارا وشرع يعمل .. ولم يجد لديه فى الوقت الراهن ما يكفى من المال لاستئجار فتاة نموذج كى يرسمها ، فقرر ان يرسم شيئا خياليا ، غير مبال بالواقع او الطبيعة

وكان اول شيء بدا به رسم راس .. راس رجل ، ثم رسم صورا اخرى من الخيال .. وصار يكثر من الخروج الى الشمس والى المتاحف ، وفى بعض جولاته هذه التقى بصديقه القديم الذى كان يشاركه مرسمه ، وهو رسام صارت له شهرة حسنة .. وقد ادهشه ان يرى لوران بهذه الاناقة ، كانه على حد قوله « سفير » ، وادهشه اكثر من هذا أن يعلم أنه تزوج من امراة موسرة تنفق على ثيابه وطعامه وطباقه ، وتؤجر له مرسما .. وكانت ثالثة الاثافى انه استقال وتفرغ للرسم ..

— لماذا لا تأتى لتزور مرسمى دقيقتين ؟..

— بكل سرور يا لوران ! هيا ...

وما ان اراه اللوحات القليلة التى اتمها حتى ابدى دهشته ، ولم يحاول اخفاءها :

— أهذه اللوحات حقا من رسمك انت ؟..

— أجل .. وهى كلها مشروعات ابتدائية للوحات سأتمها فيما بعد ...

— أتقول جادا انها من رسمك انت ؟

— طبعا ... ولم لا ؟

— لان هذه الرسوم من صنع فنان راسخ .. ولم تكن فيما عهدتك الا بادئا ..

والحقيقة انها لم تكن رسوما متقنة ولا جيدة الصنع ، ولكنها رسوم من نوع خاص .. لها غرابتها وطرافتها واصالتها ، ولها على الخصوص قوتها التى تؤثر فى النفس لاول وهلة .. وهى قوة تدل على موهبة واصالة ولا يمكن اكتسابها بالتعلم

وهز الصديق راسه متحيرا ، ثم قال :

— كل ما أوجهه اليك من ملاحظة ان هذه الرسوم الخمسة تمثل خمسة وجوه لخمسة رجال ... وهى جميعا متشابهة ،كانما الرجال الخمسة أبناء اسرة واحدة . ولو عرضتها فى معرض واحد، لبدا ذلك مضحكا .. وكانك « رسام عائلى » ترسم اسرة واحدة ، أو اشقاء بمعنى اصح ...

وبعد ان نزل الضيف ، انصرف لوران الى تأمل لوحاته الخمس ، ولم يلبث ان تبين صدق ملاحظة صاحبه ، فقال بارتياع :

— انها فعلا وجوه متشابهة .. كلها تمثل وجه « كاميلوس »..

وارتمى على الاريكة ...

فرغم كل شىء ، استطاع كاميلوس ان يدخل الى المرسم ، ويفرض نفسه على فرشاته والوانه .. لانه فرض نفسه علىأعصابه منذ رأى جثته معروضة فى المشرحة العامة

وشيئا فشيئا ، دبت الحياة فى الرسوم الخمسة .. واذا به أمام خمسة « كاميلوسين » .. فهب مذعورا ، وانقض على الرسوم فمزقها اربا ...

وارتمى بعدها على الاريكة وتنفس الصعداء ، الى ان خامرته

فكرة ازعجته غاية الازعاج ؟.. انه لن يستطيع رسم شىء الآن الا وفيه شبه قريب من كاميلوس .. ان شبح كاميلوس قد ركبه وسيطر عليه وكمن فى خلايا اعصابه ..!

واراد أن يستوثق على الفور من انه لم يزل سيد يده ، فتناول الفرشاة درآح يرسم وجها .. واذا به أمام ملامح كاميلوس ، ونظراته وسحنته !

وكررالمحاولة.. وفى كل مرة يطلعليه وجه كاميلوس من زاوية معينة !

وفى غيظ شرع يرسم قططا وكلابا وحميرا .. ومن عجب ان القطط والكلاب والحمير كانت دائما ذات شبه فى بعض ملامحها بكاميلوس !

وجعل يمزق الاوراق ، وحطم الفرشاة تحت قدميه . وقد خيل اليه انه لم يعد صاحب الامر والنهى والسلطان على أصابعه ، وان يمينه لم تعد ملكا خالصا له .. وبمعنى آخر ان يمينه لم تعد من ملك يمينه ! وانه كلما تناول الفرشاة ، لن يرسم شيئا سوى وجه كاميلوس ..

العقيدة

واخيرا لم يبق من الكارثة التى طالما حذراها بد .. فقد نزل الشلل بمدام راكان بين يوم وليلة نزولا واضحا ، بعد ان ظل يناوشها ويرجع عنها فترة مديدة .. فاذا بها قعيدة لا تستطيع الحركة ، بكماء لاتستطيع بيانا ، ففى ذاتمساء ، بينما هى تتحدث كعادتها بهدوء الى تيريزا ولوران ، توقفت فى وسط عبارة من عباراتها فاغرة الفم .. واحست كأن يدا تخنقها ...

وحاولت ان تصرخ ، وتنادى فى طلب النجدة ، فلم تخرج الا اصواتا متحشرجة .. فقد تحول لسانها الى حجر ، وتخشبت قدماها ويداها ...

وهبت تيريزا ولوران واقفين ، وهما فى حالة فزع شديد ، ولم يكن الشلل قد اصاب نظراتها ، فهى تنظر اليهما نظرات فزع واستغاثة .. وهما يلحان عليها بالاسئلة يستوضحانها ، فلا تستطيع جوابا وان سمعتهما بوضوح .. فنصفها السامع الرائى حى ، ونصفها المتحرك المتكلم ميت ..

وافزعهما هذا الرزء ايما فزع .. ولم يكونا فى اعماقهما يباليان كثيرا بآلام هذه العجوز المشلولة .. بل كان بكاؤهما على نفسيهما ، وقد كتب عليهما ان يعيشا وحدهما معا ، وليس فى حديثهما طرف ثالث ، فمنذ هذا اليوم لا يمكن ان تطاق حياتهما الا بجهد جهيد ، ففى كل مساء هما معا وجها لوجه مع تلك العجوز المستلقية فى مقعدها الكبير كالزكيبة فى البر ، فيلوذان على جانبيها بصمتطويل محرج ..

وانها لجثة .. ولكنها جثة لا قدرة لها على التفريق بينهما ،

مثل جثة ابنها الفريق ، فما اكثر ما كانا ينسيان وجودها ويحتسبانها من قطع الاثاث الصماء.. وعندئذ تزحف اهوالهما من حجرة النوم الى حجرة المائدة ، ويتراءى لهما هناك ايضا شبح كاميلوس .. وهكذا تتضاعف فترة عذابهما منذ أول المساء

وصار من عادتهما ان يجعلا المراة المسكينة دائما تحت ضوء المصباح مباشرة ، كى يتسنى لهما رؤية معالم وجهها وتعبير عينيها فى كل وقت .. فاذا هومت للنوم واغمضت عينيها ، صارتسحنتها اشبه بسحنة جثة بيضاء الشعر ، بيضاء الوجه .. فيضيقان بها وربما احدثا من الجلبة فى حركاتهما أو حديثهما ما يتكفل بايقاظها ! فهى عندهما وسيلة تسلية وتلهية عن احلامهما التى تراود يقظتهما كلما اجتمعا بليل .. والعناية التى يبذلانها لها تشغل ذهنهما عن التفكير فى مأساتهما الموبقة ..

ان لوران هو الذى يخرجها من فراشها فى الصباح ، ويجلسها فى مقعدها الكبير .. وهو الذى يضجعها فى الليل فى فراشها.. وكانت ثقيلة ، فكان يحتاج الى كل قوته ليحملها فى رفق بين ذراعيه ، وهو الذى يدفع مقعدها ويحركه هنا وهناك .. اما بقية شئونها ، فتيريزا هى التى تقوم عليها ، فهى التى تلبسها ثيابها ، وهى التى تلقمها الطعام ، وهى التى تجتهد فى فهم نظراتها .. فنظراتها هى الوسيلة الوحيدة للتعبير عن رغباتها ، وكانت هذه العناية الذكية الدءوب مشغلة ذهنية وبدنية تحمل فى ثناياها الراحة الى تيريزا

واستمرت اجتماعات مساء الخميس على حالها السابق .. والعجوز المسكينة تحضرها ، مستلقية فى مقعدها الكبير ، تحت المصباح ، من الثانية الى الحادية عشرة لا تغلق عينيها .. وتنقل بصرها من هذا الضيف الى ذاك !

وكانت مدام راكان تشعر بمنتهى السعادة لهذه العناية التى تحظى بها من جانب الجميع .. واكتسبت نظراتها مزيدا من الصفاء والرقة فى كل يوم . وقضت بضعة اسابيع على هذا النحو فى انتظار الموت ، قانعة بما أدته فى حياتها

وذات ليلة كانت محطمة القوى فاستلقت .. واغمضت عينيها ، حتى نسيا وجودها . ودهمهما شبح كاميلوس ، فراحا يتحدثان

بصوت مرتفع ليذوداه عنهما ، وندت منهما ألفاظ فضحت سرهما كله للبكماء المشلولة . وكان لوران على الخصوص فى نوبة عصبية ، جعلته يصيح كالمجانين بما فى صدره ..

وهكذا عرفت المشلولة كل شىء ذات ليلة ..

وكانت هذه المفاجأة شديدة الوقع على نفسها ، ووضح من نظراتها الغيظ كأنها توشك أن تخلع عنها علتها المقعدة وتثب من موضعها لتخنقهما بيديها العاجزتين .. !!

ولم يتغير تعبير عينين كما تغير تعبير عينى مدام راكان من الصفاء والرقة الى القسوة والحقد والضغينة .. فكأن عينيها قطعة من معدن لامع جامد رنان .. ومافى دخيلة نفسها كان أدهى وأمر ، كأنه زلزال يقيمها ويقعدها .. فهاهى ذى ترى كل تعبها ، وثروتها ، وحنانها ، وعطفها ، وسخاءها وقد ذهبت هباء وديست تحت الاقدام ..

والآن لم يبق لها شىء تعيش له .. لم يبق امامها الا ان تموت جاحدة للحب كافرة به وبالصداقة والوفاء .. فلا وجود فى الدنيا لسوى الغيلة والختل ..

ماذا ؟ ..

كامليوس حقا مات بيدى تيريزا ولوران ؟ دبرا مقتله على فراش الخنا والفجور ؟ !

واتقدت عيناها كأنها تريد أن تنهش جسما لوران وتيريزا ، فأسرع لوران يحملها الى فراشها وهو يتحاشى نظراتها .. ولما أضجعها وجدها تحملق فيه بتلك النظرة الجارحة ، فقال متهكما :

ـ حملقى فى وجهى ما شئت .. فلن تأكلنى نظراتك !

ولكمها فى وجهها فأغمى عليها ، وغادر الحجرة ..

الفصل السادس والعشرون

الانتقام

وفى يوم الخميس التالى ، شعر القاتلان بعدم ارتياح شديد عند اقتراب موعد حضور الضيوف .. وهمست تيريزا لزوجها :

ـ هل من المأمون أن نتركها معهم ؟

ـ هراء ماتظنين يا امرأة .. انها مشلولة فكيف يمكنها ان تتكلم؟

ـ ربما استطاع غيظها أن يهديها الى وسيلة للايقاع بنا ..

ـ لا تخافى .. فقد اكد لى الطبيب انه لا أمل فى شفائها .. ولا ضرورة للظهور بأى مظهر غير عادى امام الناس ، دعيها فى موضعها المعتاد ..

ـ نستطيع ان نحتج بمرضها .. وأنها لا تستطيع الليلة مبارحة الفراش

ـ وهذا هذيان .. لان ميشو وجريفيه سيقتحمان الحجرة على طريقتهما الضاحكة ، ويحاولان التحدث اليها بالاشارة . وكلاهما يجيد فهم نظراتها الآن .. وقد يلحظان شيئا غير عادى .. كلا .. كلا .. ليكن كل شىء على ما هو عليه .. ولن يفطنا الى شىء ..

وكان للوران ما أراد ، فحضر الضيوف ليجدوها فى موضعها المعهود

وكانت مدام راكان تنتظر سهرة الخميس بفارغ الصبر كى تشى بالقاتلين ما وجدت الى ذلك سبيلا . وكانت حتى اللحظة الاخيرة ، تخشى الا يسمحا لها بالحضور . واعتمدت على نظراتها وتعبيرها القوى فى محاولة ابلاغ مرادها لميشو وجريفيه . ولكن الضيوف لم يلاحظوا شيئا .. وجلسوا يلعبون الدومينو ، فبذلت مجهودا يائسا لتحرك يدها وتشير بها الى « ميشو » كى تلفت نظره .

وبمعجزة من معجزات الارادة الحاقدة ، استطاعت بعد يأس أن تحرك يدها وتضعها فوق المائدة التى يلعبون عليها الدومينو . فلما راى اللاعبون تلك اليد البيضاء الناعمة الرخوة فوق المائدة ، دهشوا دهشة عظيمة ·· وتوقف جريفيه عن اللعب ، وبقيت يده معلقة فى الهواء فى اللحظة الرائعة التى كان يتأهب فيها لوضع « الدبش » وكسب اكبر رقم فى الدور

ولم تكن العجوز قد حركت يديها منذ اصيبت بالشلل ، فصاح ميشو :

ـ انظرى ·· انظرى يا تيريزا ·· مدام راكان تحرك اصابعها ·· لابد أنها تريد شيئا ما ·· !

ولم تستطع تيريزا ان تجيب ·· وكانت قد رأت مجهود العجوز المستميت كما رآه ايضا لوران ، ونظرت الى يد عمتها ، وخيل اليها انها يد الانتقام تهيب أن تشهر بها .. وتعلقت انفاس القاتلين رعبا وجزعا ··

وهتف جريفيه على الاثر :

ـ أى وربى ! انها قطعا تريد شيئا ·· انا أفهم جيداً معنى نظراتها .. فهمت ! .. انها تريد أن تلعب معنا الدومينو ! اليس كذلك يا صديقتى العزيزة ؟

وحركت مدام راكان عينيها حركة عنيفة إعرابا عن رفضها ·· ومدت اصبعها السبابة ، وقبضت بقية الاصابع بصعوبة هائلة ، ثم شرعت بجهد وعناء تخط حروفا على مفرش المائدة · وبعد خطين ، صاح جريفيه :

ـ فهمت ! ·· انها تريد أن تقول انى أحسنت بلعبة الدبش !

فرمقته العجوز بنظرة هائلة ، فلو استطاعت نظرة أن تصفع لصفعته نظرتها ! ·· ومرة أخرى شرعت تخط الكلمة التى تريدها على مفرش المائدة .. بيد ان جريفيه لم يكف عن مقاطعتها، ومحاولة تخمين مرادها ، الى أن حمله ميشو على السكوت

ـ عليك اللعنة ! دع مدام راكان تكتب ما تريد ·· اكتبى يا صديقتى العزيزة ··

وركز نظراته على المفرش ، كأنه يصغى لكلام مسموع · ولكن

الاصابع الكليلة اصابها التعب ، فلم تخط الا بضعة احرف . وبصعوبة استطاع ميشو وابنه أوليفييه أن يتبينا مضمونها ··· وصاح أوليفييه :

ـ انها تكتب اسم تيريزا ·· « تيريزا و ·· » ثم ماذا ؟

وكادت تيريزا عندئذ ان تصيح صيحة فزع ، وهى ترى اصبع عمتها تنساب فوق المفرش · وخيل اليها انها ستكتب كل قصة جريمتها بأحرف من نار ، وقفز لوران من موضعه ، وهو يغالب رغبته فى الهجوم على المرأة المشلولة ليحطم يدها أو يكسر ذراعها التى دبت فيها الحياة على غير توقع ·· وظن أنه مقضى عليه لامحالة، حتى لقد أحس بيد الجلاد على مؤخرة عنقه

وصاح اوليفييه بعد فترة صمت متوتر :

ـ آه .. « تيريزا ولوران هما » .. هذا ما كتبته ثم ماذا .. ماذا تريدين ان تقولى عن ولديك يا مدام راكان ·· ؟

وبلغ من رعب القاتلين انهما اوشكا ان يتما العبارة بصوت مرتفع، وكانت نظراتهما مركزة على هذه اليد الواهنة الكليلة ، عندما تشنجت تلك اليد وتراخت فوق المائدة سليبة الحيوية ..

لقد عاد الشلل الى هذه اليد ، فصارت كما كانت كتلة من اللحم الهامد .. ثم شيئا فشيئا سقطت اليد عن المائدة واستقرت فى حجرها .. وجلس ميشو وأوليفييه فى مقعديهما ، وقد خاب أملهما فى فهم ما تريد ان تقوله لهما . اما تيريزا ولوران فلم يكن لسرورهما بانفراج كربهما حد .. حتى كاد يغمى عليهما من شدة اندفاع الدم الى رأسيهما ، وسرعة خفقان قلبيهما ..

ومرة اخرى عاد « الفيلسوف » جريفيه يفسر كل شىء بفطنته :

ـ صدقونى انا .. انها تريد ان تقول : « تيريزا ولوران هما ملاكاى الحارسان ·· انهما يرعيانى خير رعاية · ! »

وبطبيعة الحال وافق الجميع على هذا التفسير ، وانطلقوا يهنئون تيريزا ولوران ، ويسوقون اليهما المديح العاطر .. وقال ميشو بكل وقار :

ـ ما من شك فى ان مدام راكان تريد ان تعرب عن تقديرها العظيم

لرعايتكما الحانية.. والآن فلنتم مباراتنا الحامية من حيث قطعناها

لرعايتكما الحانية .. والآن فلنتم مباراتنا الحامية من حيث قطعناها الى الانتقام من عدويها ، فقررت أن تصوم عن الطعام حتى الموت !. وكان ذلك اهون على نفسها من عذاب الوجود معهما دائما ، واحتياجها ، وهى عاجزة عن كل شىء ، الى عنايتهما .. وليس أقتل للنفس الكريمة من حاجتها الى لئيم .. !

اى عذاب صامت تعانيه ، وهى تتحمل قبلات تيريزا لها كل صباح ومساء .. فلا تستطيع ان تدفعها بيديها المشلولتين ، ولا ان تبصق فى وجهها !

وظلت يومين كاملين تلفظ كل طعام ، باذلة اقصى قوتها فى اطباق اسنانها ، حتى لا تدس تيريزا شيئا من الطعام بينهما .. وكادت تيريزا تجن من فرط اليأس ، لاتدرى ماذا تصنع .. فعمتها المشلولة هى العزاء الوحيد الباقى لها .. تبكى مستغلة جمود شللها وتنتحب وتكفر عن زلتها وهى آمنة من الوشاية .. فان ماتت غدا ماذا تراها صانعة بايامها ووحدتها المطلقة التى لا تطاق مع لوران ؟!

ولم تفد جهود تيريزا فى ارجاع عمتها عما اعتزمته.. واستخدمت العنف معها لفتح فمها بلا فائدة ، ولوران يرى ما يجرى أمامه وهو لا يحرك ساكنا . فقد كان يعجب فى نفسه اشد العجب فى تشبث تيريزا بمنع عمتها فى الاقدام على الانتحار بهذه الوسيلة .. ولعله لو ترك لنفسه ، لفكر فى قتلها بعد أن عرفت السر ، وباتت نظراتها تذكيرا دائما بالجريمة ، بعد أن كان وجودها حائلا دون ظهور شبح كاميلوس المختبىء فى غرفة النوم !

ــ دعيها لتموت ! .. مع الف سلامة ! .. وعسى أن نكون بعدها اسعد حالا

وكانت مدام راكان تسمع هذا الكلام وتعيه جيدا ، فاحدث ذلك لديها رد فعل عجيب .. وخطر لها أن موتها قد يؤدى فعلا الى نسيانهما ما اقترفاه ، فيحظيا بساعات من الهدوء والراحة والسعادة .. وقالت فى نفسها :

ــ ما اجبننى لو مت منتحرة وتركت لهما الحياة ينعمان بها ..

يجب أن اعيش الى ان اجد وسيلة لتقويض سعادتهما والانتقام منهما .. وعندئذ اذهب الى كاميلوس وابشره انى انتقمت له !

وكانت ترى بعينيها ان كل يوم ينقضى تزداد فيه الامور سوءا بين الزوجين . وليس ببعيد أن يحدث بينهما انفجار يودى بهما معا .. فبعد أن كان الليل فقط هو فترة عذابهما ، صار كل وقت يجتمعان فيه معا وقت عذاب .. !

بل لقد خطر للقاتلين فى وقت من الاوقات انه خير لهما ان ينفصلا .. وفكر كل منهما على حدة فى الفرار ليعيش بعيدا عن هذا الجو الخانق . ولكن المتجر الصغير كان يكبلهما بقيوده ..

وحاول لوران أن يطيل فترات غيابه فى الخارج ، ولا سيما فى مرسمه .. وكانت تيريزا تقضى وقتها موزعة بين حجرة عمتها والمتجر والمطبخ.. وربما دعت سوزان زوجة اوليفييه لتقضى بضعة ايام معها كى تخفف عنها الوحشة ، فكانت سوزان تأتى بكل سرور لأنها كانت تحب تيريزا كثيرا ..

وباختفاء العجوز من المتجر ، بدأ العملاء الثابتون ينقطعون ، لان دماثة مدام راكان كانت هى التى تجتذبهم . أما تيريزا فكانت على شىء كثير من الفظاظة وجفاف السحنة والتعبير .. فقلت الموارد شيئا فشيئا ، وبدأ العنكبوت يبنى شراكه فى الاركان الخاوية

وبدأ لوران يضرب تيريزا فى بعض الاحيان لاتفه الاسباب ، أو لغير ما سبب .. وبدورها تصب سخطها على الزبائن وتلقاهم أسوأ لقاء ، فيذهبون لغير رجعة !

وبعد خمسة اشهر من الزواج ، ايقنت تيريزا انها حامل ، فاستولى عليها فزع هائل.. واعتقدت انها ستلد جنينا مخنوقا.. مخنوقا باسفكسيا الغرق !! وان هذا هو الانتقام الذى اعدته لها الاقدار ..

وكتمت تيريزا الامر عن زوجها .. لم تخبر احدا ، لانها قررت التخلص من ذلك الجنين .. وذات يوم تعمدت أن تثيره ، فرفع رجله ليركلها كعادته ، فعرضت له بطنها فى تحد ، وبجنون الحاقد اجاب التحدى .. وظل يركلها فى بطنها الى ان اغمى عليها . وفى

اليوم التالى اجهضت .. !

وبعدها صارت تكثر من التغيب عن المتجر فى كل عصر تقريبا ، وتترك سوزان فى مكانها الى ان تعود ، من غير ان تخبرها الى اين تذهب ..

ولاحظ لوران هذا التغيب الذى يطول ثلاث ساعات ، خمس مرات كل اسبوع .. وخيل اليــه انها شرعت فى خيانته ، فقرر ذات يوم ان يتعقبها وهى لا تدرى ..

وكمن لها فى مواجهة ناصية الممر ، الى ان رآها قادمة فى ثيــاب صارخة الالوان ، وقد تزينت مثل فتيات الهوى · وراحت تتبختــر على طوار الشارع الكبير وتهتز باثارة مفتعلة ، وهى ترمق المارة من الرجال بنظرات الغواية !

وتبعها الى ان دخلت شارع مدرسة الطبار ، ثم انتهت الى ميدان القــديس ميشيل ، ثم دخلت مقهى وجلست على مائدة تطل على الطريق ، وحضرت اثنتان من فتيات الهوى ، فجالسنها بغير تكلف مما يدل على قديم الفة بينهن .. وجاء بعد قليل شــاب اشــقر فشرب معها كأسا من الابسنت ، ثم تأبطت تيريزا ذراعه ونهضت معه ، فتوجها الى مخدع من مخادع الريبة فى شارع المزهر ..

وبلغ من بعدها عن قلبه عندئذ ، انه لم يحس ألما عميقا لخيانتها وتبذلها .. انها لم تعد منه ، بالحب .. بل بالاشتراك فى الاثم والجريمة وازهاق النفس !

ولكنه فى المساء ضربها علقة ساخنة ، وطلب منها خمسة آلاف فرنك لينفقها على ملذاته .. فقد قرر ان يجاريها فى الفجور عسى ان ينسى ، ولكن فجور الرجل يكلفه مالا تتكلفه المــراة فى فجورها الذى تتقاضى عليه اجرا ! فلما قاومته أوجعها وافهمها بالكناية انه يتقاضاها ثمن سكوته على سلوكها المعوج .. والا فانه سيفضحها ·· وسيعترف بجريمتهما ليتخلص من حيــاته التى باتت لا تطاق ويدفع بها معه الى المقصلة !

وما هاله الا توقد عينيها بشرر التحدى ، وهى تقول له :

ــ وهل تظننى لا ارحب براحة الموت لاتخلص من حياتى معك ؟ هيا معى الى الشرطة !

ولكنهما ما ان هبطا الى المتجر حتى عاودهما الجبن ، وتصالحا .. ونقدته المبلغ .. وانطلق الى حانته فعب من الخمر ما اسكره ، واضحك عليه الرواد وبنات الليل . وصحب احداهن الى حجرتها ولكن الخمر لم تفلح فى بعث ما مات من ثقته برجولته .. واستلقى على الفراش لا يعى الى مطلع الصبح !

وهكذا اندفع كلاهما الى التمرغ فى الوحل ، كل على طريقتــه وفى وجهته ، حتى سقط منهما كل اعتبار ، وتمزقت اعصابهما شر ممزق ، من غير ان يحصلا على ما ينشدانه من النسيان وراحــة البال .. وبدا كل منهما يعد سرا وسيلة لقتل صاحبه ثم يقدم على الانتحار ، ليضع حدا لهذا العذاب الذى ليس له آخر !

وذات ليلة ، بينما تيريزا ترفع الاطباق عن المائدة ، لمحت عفوا لوران وهو يصب خلسة قارورة صغيرة فى كوب اللبن الذى كان من عادتها أن تسقيه للعجوز قبل أن تنام ·· وبهدوء مدت يدهــــا الى كوب اللبن ، وبدلا من أن تقدمه الى عمتها ، شربت نصفه ..!

واختطف لوران الكوب المسموم من يدها وتجرع بقيته ··

وسقط الاثنان على الارض .. واطبقت تيريزا شفتيها على عنق لوران تقبله .. فوقعت شفتاها على اثر عضة كاميلوس ..

وظلت الجثتان على الارض طول الليل ، ومدام راكان فى مقعدها تنظر اليهما نظرات غريبة ، ولا تستطيع أن تصرخ شكرا لله على أنه ابقاها الى أن رات بعينيها انتقامه لولدها .. وكأنها تقول :

ــ الآن يا رب اطلق عبدتك بسلام .. فقد شهدت دليل عدلك..

تمت

روايات الهلال
مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

هذه الرواية

قصة تيريزا راكان هى أول رواية عظيمة ، أطارت شهرة اميل زولا ، زعيم المدرسة الطبيعية فى الادب القصصى

وهو فى هذه الرواية يروى قصة النفوس البشرية حين تستذلها الرغبة الجامحة ، ويسيطر فيها شيطان الجسد على قياد الرجل او المراة ، فيخمد صوت الضمير ، والعقل ، والمصلحة ...

واذا كان شيطان الجسد جامحا ، فان غفلة الناس وسذاجتهم ، وأنانيتهم هى التى تيسر السبل امام ذلك الشيطان كى يبسط سلطانه ويصل الى أغراضه الخبيثة ...

وقد استطاع أميل زولا ان يصل بعقدة القصة الى ذروتها الكبرى ، حين جعل الجريمة هى النتيجة الطبيعية للانسياق وراء الشهوة ، وحين جعل الموت هو النتيجة الطبيعية للغفلة والانانية

ولكنه لم يترك الجريمة بغير عقاب ، ولم يترك الاثم بغير ندم ، بل بين كيف تكون عاقبة الجريمة ونتيجتها المحتمة هى الشقاء والقصاص الالهى ..

فهذه القصة التى تكشف عن خفايا النفوس البشرية ومكنونات المطامع والشهوات وراء نفاق الصداقات المزعومة ، تقوم فى الوقت نفسه العبرة الاخلاقية وكلمة الحياة ...

تيريزا

المؤلف

* من اشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر

* يمتاز بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ، ووصف البيئة الاجتماعية

* يعد ((زولا)) امام المدرسة الطبيعية فى الادب ، وامام المدافعين عن العدالة

* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم ((غانية باريس))

